

الفاضل الفاضل
عبد الرحيم البيساني

هادية راتب الدجاني

رسالة قدمت الى الدائرة العربية في الجامعة الأميركية
في بيروت للحصول على درجة "استاذ علوم"

بيروت
الجامعة الأميركية
تشرين الأول ١٩٦١

تمهيد

١ - مقدمة

عاصر فترة ملأى بالاضطرابات السياسية - ومتسمة بالحرب الطاحنة بين العرب والفرنج - وبالثقوبات الجذرية الهامة في تاريخ المسلمين . عاشها وأسهم فيها وأحيها إلى حد بعيد . ذلك هو القاضي الفاضل ، وزير صلاح الدين الأيوبي الذي شاهد اندثار الخلافة الفاطمية في مصر ، وتوحد مصر والشام ، واستعادة البلاد المقدسة من أيدي الفرنج بعد احتلالهم الطويل لها .

ظهر على مسرح هذه الفترة ولعب دورا فيها بلسانه وقلمه ، حفظه له المؤرخون الأقدمون وقدروه له ، وأغفله المحدثون الذين خصوه بترجمات موجزة لاظهار اهميته الأدبية في الأغلب - ولم يخصه أحد هم يبحث خاص يضعه فيه حيث يجب أن يوضع .

تعرفت إلى القاضي الفاضل في بادئ أمرى كفضي . صاحب طريقة خاصة في الكتابة فوامها البديع ، ثم ازدادت معرفتي به من خلال دراساتي التاريخية لعصر صلاح الدين حيث اطلعت على بعض رسائله المحفوظة في كتاب الرضتين * لأبي شامة ، وعلى شيء يسير من سيرته شعرت على أثرها بالكثير من التشابه بين ظرفه ك فلسطيني اضطران يقضي القسم الأكبر من حياته خارج بلاده ، لاحتلال الفرنج لها ، وظرفي الحاضر ك فلسطينية أعيش خارج بلادى لاحتلال اليهود لها ، وأحسست بشيء من الرغبة يدفعني إلى التزيد من معرفة تاريخ فلسطين والبلاد العربية اثنا عهد صلاح الدين ، ورأيت في القاضي الفاضل

خير مثل لها ، لذلك فضلت اختياره موضوعا لرسالتي هذه مدفوعة بعامل آخر هام ، هو عدم وجود بحث مستقل عنه .

تأمل أن أرفيه حقه في هذا البحث وأضعه في مكانته اللائقة به .

٢- تقييم المصادر والمراجع الياحة في القاضي الفاضل

بما كنا ان نقسم المصادر والمراجع ذات العلاقة المباشرة بالقاضي الفاضل بالنسبة لأهميتها الى ثلاثة أقسام :

- (١) رسائله ومذكراته وديوان شعره .
- (٢) كتب التاريخ والأدب القديمة التي تحدثت عنه
- (٣) المراجع الحديثة التي قامت بمحاولات لدراسة .

١- رسائل القاضي الفاضل وديوان شعره

١ - رسائله

توجد رسائل القاضي الفاضل في شكلين ، أحدهما مخطوط ، لم تجر محاولات لنشره حتى الآن . والآخر موزع في بعض كتب التاريخ والأدب

أما المخطوط من رسائله ، فقد تكثرت بمقتضى معاونة مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت من الحصول على أربع مجموعات منها ، مصورة عن مخطوطات بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية ، اطلعت عليها وحاولت أن أستعين بالمادة الموجودة فيها قدر الامكان لدراسة حياته وشخصيته وأدبه . وقد تفاوتت مجموعات هذه المخطوطات بين رسائل اخوانية وديوانية ، ووردت فيها رسائل عديدة مشتركة ، إلا أن كلا منها تفردت بمقتضى بناحية من النواحي سواء من حيث الرسائل وفيها أو من حيث القاء ضوء على القاضي الفاضل وعصره . أما أكثر المخطوطات علاقة بالقاضي الفاضل نفسه فمخطوط :

(١) الفاضل من كلام القاضي الفاضل : وهو مخطوط مصور ، جمع فيه

جمال الدين ابن نباته (ت ٧٨٦ هـ) مجموعة من رسائل

وأقوال القاضي الفاضل ، ومقتطفات عديدة من بعض رسائله

طغت يكثرتها على عدد رسائله التامة في هذا المخطوط .

وقد تفرد هذا المخطوط بإيراد أكبر عدد من المقتطفات مسن

رسائل الفاضل التي تلقي ضوءاً على حياته ، خاصة فيما يختص بصحته ومسيرته

الجسمانية بوجه عام ، والأمراض التي كانت تنتابه بين آن وآخر حتى وفاته .

المتأزم في البلاد زمن صلاح الدين لكثرة ما ورد فيها من رسائل الشفاعات والتذمر من الحالة الاقتصادية المضعفة أثناء حكم العزيز عثمان .

(٣) من ترسل القاضي الفاضل

مخطوط مصور بخط موفق الدين الدياجي ، احد كتاب الانشا زمن الملك الكامل بن أيوب . تقع اهميته بالأغلب في الناحية التاريخية ، ويتفرد بإيراد ثلاثة رسائل تاريخية هامة تصف احداها الموقف بين صلاح الدين والفرنج بسوريا ، وتتحدث الثانية ، وهي مرسلة الى الديوان ببغداد عن فتوحات السلطان ، والثورات الداخلية التي سببها بعض الشيعة ، والسودان ، ووقعة دمياط . كما تبحث الثالثة في فتح عسقلان .

(٤) الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم

وصلتنا نسختان عن هذا المخطوط ، نسخ احداها محيي الدين ابن عبد الظاهر (ت ٦٨١ هـ) ، ونسخ الأخرى شخص مجهول بيد رانه نقلها عن نسخة ابن عبد الظاهر لتشابه الكلمات والأخطاء . وأدخل خلالها كتابا آخرى في موضوعات مختلفة لا علاقة لها بالقاضي الفاضل .

أهم ما في المخطوطين ، رسالتان تاريخيتان لم تردا في
غيرهما من المخطوطات ، أحدهما إلى بني جعفر وطلحة ، بعض العشائر
المتخلفة عن حرب الفرنج في مصر زمن الوزير شاور ، والآخرى إلى محمد ابن
قاضي عكا ، يوصيه فيها بما يعتمد عليه في رسالته إلى ملك الروم . وقد كشفت
الأولى عن علاقة المصريين بالفرنج في تلك الفترة ، وانشقاق المصريين فيما
بينهم . كما كشفت الثانية عن علاقة المسلمين بالجنوبيين وبحاكم القسطنطينية .

أما رسائله الموزعة بين كتب التاريخ والأدب ، فنقسم كبير منها مشترك
بين هذه المصادر والمخطوطات ، كما أن نسما منها يساعدا^ن بالتعرف إليه ، إلا
أن علاقتها في الأغلب بتاريخ العصر ، وأدبه ، وهي كغيرها من رسائله المخطوطة
المساعد الأولى في دراسة أسلوب القاضي الفاضل .

ب - شعر القاضي الفاضل

قام الدكتور أحمد بدوي مؤخرا بتحقيق الجزء الأول من ديوان القاضي
الفاضل ونشره . وقد أفادنا في ذلك بأن عرفنا إلى قسم كبير من شعر القاضي
الفاضل لم يكن من السهل العثور عليه . وأعاننا على إقامة دراسة لشعره .
وقد اعتمد بعض المصادر التاريخية والأدبية لأعانه في تحقيق الديوان ، وأنفل
بعض المصادر التي تحتوى شعرا للفاضل ، أمثال مطالع البدور للغزولي ،

والغيث للصفدي ، والأعلاق الخطيرة لابن شداد . وبعض الأبيات العديدة
الواردة ضمن بعض رسائل القاضي الفاضل . وكان يخطئ في نقل الكلمات
الصحيحة في بعض المواضع ، فينقلها مصحفة دون أن يصححها في الهامش .
كما كان يخطئ في نسبة أبيات لأصحابها الحقيقيين في الهامش ، كأن يذكر أبياتا من
الشعر على أنها للمتنبّي ، مثلا ، وهي في الحقيقة لأبي نواس .

وشعر القاضي الفاضل على العموم لا يلقي كثير ضوء على حياة القاضي
المفاضل لولا أبيات ^{تنبّه} عصفية وعف فيها حاله في أول أمره بالكتابة وطموحه . وأبيات
أخرى مدح فيها الصالح بن زريك لأعلاء ^{معه} منزله . وما عداه فتكشف عن علته
بحكام عصره .

٢- كتب التاريخ والأدب القديمة التي تحدث عن القاضي الفاضل

تمكنت من الرجوع الى عدد كبير من مصادر التاريخ والأدب المفشورة
الباحثة في العهدين الفاطمي والأيوبي ، وحاولت أن استفيد منها قدر الامكان في
سيرة القاضي الفاضل ومكانته الاجتماعية والسياسية والأدبية ، وفي التعرف الى رسائله
واشعاره المبعثرة في ثنايا بعضها . وقد لاحظت اشتراك بعضها في كثير من
الروايات عنه ، الا انها تفاوتت بأهميتها بالنسبة للقاضي الفاضل . لذلك سأكتفي هنا
بذكر أهم المصادر الباحثة في القاضي الفاضل ، تاركة الباقي لفهرس المصادر .

١ - كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ، لشهاب الدين

ابي شامة (ت ٦٦٥ هـ) .

يعد من افضل المصادر التاريخية لدراسة القاضي الفاضل ،

فمولفه يتلقت اخبار الفاضلي ويتحدث عنه بأسهاب ، ويحاول في مواقف عديدة ابراز اهميته في عصره ، ويكثر من ذكره خاصة في الجزء الثاني من تاريخه . كما انه يعتمد رسائل القاضي الفاضل الى حد بعيد كمصدر له في تاريخه . وقد حفظ له بذلك عددا كبيرا من رسائله التاريخية .

ب - وفيات الأعيان لمشمس الدين ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ)

ترجم مؤلف الكتاب للقاضي الفاضل ترجمة مستقلة ، كما تحدث

عنه خلال بحثه لسيرة بعض الأشخاص المعاصرين له من حكام وأدباء ، وتغرد بالتحدث عن والد القاضي الفاضل . وأورد له شيئا من رسائله ، الا انه وجه للقاضي الفاضل اتهاما خطيرا لم يوجهه له غيره من المؤرخين ، وهو انه لم يكن اصيلا في كتابته ، بل كان جل اعتماده على كتابة ابن أبي السخاء ، احد الكتاب الفاطميين .

ج - صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، لأبي العباس القلقشندي

(ت ٨٢١ هـ) .

حفظ لنا مؤلف هذا الكتاب عددا كبيرا من رسائل القاضي الفاضل
الديوانية ، من سجلات وهمود ورسائل تاريخية أورد معظمها تامة ليدل بها على
أساليب الكتابة الانشائية في العهد الفاطمي والأيوبي ، وقد اتخذ من رسائل
القاضي الفاضل نموذجا لكتابة ذلك ^{المصر} ~~الخطوة~~ فأصبح من المصادر الرئيسية لدراسة
أسلوب الفاضل .

د - المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، لتقي الدين
المقريزي (ت ٨٤٥ هـ) .

خصص فصلا للحديث عن القاضي الفاضل ومدرسته الفاضلية . ومن
بعض منشأته الخيرية . كما أنه تفرد من بين المصادر التي عثرت عليها ~~فلا~~
يحفظ قسم من متجدداته وتعليقاته على المتجددات ، نعرفنا بذلك الى نوع
جديد من أدب القاضي الفاضل وتاريخه .

— — —

٢- المراجع الحديثة التي قامت بمحاولات لدراسة القاضي الفاضل

رجعت الى بعض المراجع الحديثة الباحثة في سيرة القاضي الفاضل
وأدبه ، أمثال كتاب الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، للدكتور أحمد بدوي ،
دمشق ١٩٤٤

ودراسات في الشعر في عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسين . وكتاب
أدب الحروب الصليبية للدكتور عبد اللطيف حمزة وغيرها . كما اطلعت على
مقال للدكتور كارل بروكلمان بعنوان القاضي الفاضل ، في دائرة المعارف
الاسلامية ، الا انني لم اسعد من هذه المراجع كثير فائدة لعشوري على المادة
الوجودية فيها في مصادرها الأصلية ، لذلك فضلت استقائها من نبعها . واكتفيت
منها بما تهديني اليه بالتعرف الى مصادر كنت غائلة عنها . ولا بد لي مني
هذا المقام من ذكر بعض الفهارس التي أشرفت على اعدادها هيئة الدراسات
العربية في الجامعة الأميركية في مساهمة المؤرخين العرب في المائة السنة
الأخيرة في دراسة التاريخ العربي ، والأدب العربي ، وأخص منها فهرسين كانا
رائدين لي في بحثي هذا ، أولهما الفهرس الذي أعده الدكتور قسطنطين زريق
في دراسة العهد الصليبي وثانيهما ، الفهرس الذي أعده الدكتور محمد كامل
حسين في دراسة الأدب الفاطمي . ولم أعتمد المصادر الغربية الباحثة في
العصر الصليبي لاهتمامها بالناحية التاريخية في الأقلب .

فهرس الموضوعات

١ -	مقدمة في دراسة عصر القاضي الفاضل
	الكتاب الأول - سيرة القاضي الفاضل
٢ - ١	(١) مدخل للتعريف بأسرته ونسبه
	(٢) مراحل حياته
١٤ - ٥	أ - المرحلة الأولى من حياته
٢٦ - ١٤	ب - المرحلة الثانية من حياته
٢٢ - ٢٧	ج - المرحلة الثالثة من حياته
	الكتاب الثاني - شخصية القاضي الفاضل
٢٦ - ٢٤	(١) عورته الجسدية
٥٥ - ٢٦	(٢) العناصر الهامة في شخصيته
٧٤ - ٥١	(٣) شخصيته من حيث آثارها في بيئته
	الكتاب الثالث - القاضي الفاضل الناصر والشاعر
	(١) القاضي الفاضل الناصر
	١ - مقدمة الفتر قبل القاضي الفاضل
٧٤ - ٧٢	(١) في المشرق
٧٨ - ٧٤	(٢) في مصر

٨١-٧٨

ب - نشر القاضي الفاضل

(١) انواع رسائله

٨٤-٨١

(أ) الديوانية والعهود والسجلات

٨٦-٨٤

(ب) التاريخية

٨٧-٨٦

(ج) الاخوانية

٩٠-٨٧

(٢) طريقة القاضي الفاضل الانشائية

(٣) خصائص أسلوبه

١٠١-٩١

(١) المحسنات اللفظية

١٠٢-١٠١

(ب) المحسنات المعنوية

١٠٦-١٠٢

(ج) الصور البيانية

١١٠-١٠٧

(٤) تقييم نشر القاضي الفاضل

١١٢-١١٠

(٥) مقارنة أسلوب القاضي بأساليب بعض معاصريه

١١٤-١١٢

(٦) أثره فومن جاءوا بعده من الكتاب

١٢٦-١١٥

(١) القاضي الفاضل الشساعر

- لائحة المصادر والمراجع

- خاتمة

لست أزمع اني في هذه اللوحة الموجزة أدرس عصر صلاح الدين وما قبله وما بعده ، وهو عصر ذو زوايا وجوانب متعددة ، فان دراسة عصر ما على نحو مطول في التقديم لدراسة احد رجاله أمر يعد في نظري مستهجنا اذ هو عكس للقضية . فبينما يجب ان تعدد الدراسات للأفراد البارزين في عصر ما ، لتكون للعصر صورة واضحة بعض الوضوح ، ارانا نكتب المقدمات عن العصر لدراسة فرد واحد ، ولو فرضنا ان دراسة العصر أمر في مقدور الدارس ان يحققه ، لما كان هذا الموطن صالحا لها ، لما تقتضيه دراسة العصر من توسع كبير ، تصبح الى جانبه الدراسة الأصلية شذرة صغيرة .

لهذا كله لن أتعرض الا الى لوحة موجزة نصلح ان تكون اطارا

توضع فيه صورة القاضي الفاضل حسيما أرسبها في الصفحات التالية .

واذا شئت التحديد قلت ان القاضي الفاضل رأى نهاية حكم وبداية حكم آخر . رأى الضعف والفساد والغزو الخارجي والتفائل على السلطة في نهاية العصر الفاطمي ، ورأى الانتقال من هذا الوضع الى وضع جديد ، فهو ابن فترتين ، لورسنا لهما خطا بيانيا لكان الارتفاع في الخط ~~مما~~ متوازيا تماما في حياة العصر وحياة الأديب الذي أدرسه .

وقد كان الوضع الجديد في صيغته العامة حركة قوية تهدف لطمس الماضي وإزالة آثاره ، لذلك كانت راية الجهاد التي رفعها صلاح الدين لا تعني توحيد القطرين المصري والشامي فحسب ، واستغلال مواردهما البشرية وغير البشرية في سبيل القضاء على الصليبيين ، بل كانت تعني أيضا محاولة لاعادة السنة والقضاء على التشيع وكانت هذه حركة هجومية واصلاحية معا ، اعني انها استدعت شيئا من العنف في مطاردة المذهب الفاطمي ، كما استدعت نشاطا عاما في الاصلاحات الداخلية كبناء المدارس والمساجد والمستشفيات ونشر التعليم السني على نطاق واسع ليتسنى للمذهب السني ان يهتمصر .

ويجب الا نفرد صلاح الدين بهذا الاتجاه ، فانه سار فيه منما لما بدأه نور الدين زنكي (١) من ناحية ، قامن مثله بضرورة تأمين الاتصال بين مصر والشام ، وآمن مثله ايضا ببدء الجهاد ، وحاكاه في تحقيق العدالة ومحاوله نشرها في ارجاء البلاد ، كما يجب دائما ان نتذكر طابع الناس الذين وقفوا الى جانبه يؤيدونه في القول والعمل ، وكان اعلان الجهاد في النواحي السياسية والاصلاحية يقتضي أنموذج الرجل المتدين مثل القاضي بهاء الدين ابن شداد ، والقاضي الفاضل ، والفقيه الخبوشاني ، الذين تصل بهم نزعة التدين أحيانا حد التشدد . وفي مثل هذه البيئة برزت " شخصية " القاضي الفاضل ، واضطلعوا بالمسؤوليات الجسيمة .

(١) المقرئى ٢ ، ٢٦٣

على ان صلاح الدين نفسه كان " انموذجا " أعلى لمن حوله ،
نقد حُرِّم على نفسه ما كان لدى الخلفاء الفاطميين من مجالس الشرب والطرب
لأنه كان متقشفا تاركا للهو والشرب . (١) وتخلو عن كثير من مظاهر الترف
كالاغنياء الكثيرة التي بلغت في زمن الفاطميين ثمانية وشرين عيدا (٢) وانصرف
الى مهام الامور ، ولم تنسه واجباته الحربية الكثيرة ان يلتفت الى حال الرعية فيكثر
من نشر التعليم بإنشاء المدارس الكثيرة حتى عد المفريزي منها ما يزيد على
العشرين مدرسة (٣) و منها المدرسة الناصرية للشافعية ، والفصحية للمالكية ،
والسيوفية للحنفية ، وبه افتدى الرجال العاملون حوله ، بنى القاضي الفاضل
المدرسة الفاضلية ، وبنى الخبوشاني مدرسة بازام مشهد الشافعي " لم يعمر
بهذه البلاد مثلك ولا أوسع مساحة ولا أحفل بنا " يخيّل لمن يتطوف
عليها انها بلد مستقل بذاته والنفقة عليها لا تحصى ، تولى ذلك بنفسه
الشيخ الامام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشاني ، وسلطان هذه
الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول : زد احتقالا وتأنقا ولسينا
القيام بمؤنة ذلك كله " . (٤)

(١) المفريزي ٢ ، ٢٢٢

(٢) المصدر نفسه ٣٨٤

(٣) المصدر نفسه ٢٦٢ وما بعدها

(٤) ابن جبير ، ٤٨

ولعل أكثر ناحية اصلاحية لفتت صلاح الدين بعد المدارس هي الاكثار من بناء المستشفيات في كل بلد وتوظيف ما يلزم لها . ونستشهد من ابن جبير على بعض هذه المظاهر الاصلاحية بقوله * وما شاهدناه ايضا من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا ابرزه لهذه الفضيلة اجرا واحتسابا ونحن قوما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكته من استعمال الاشربة واقامتها على اختلاف انواعها ووضعت في مناصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكس ، وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد احوال المرضى بكثرة وعشبة فيقابلون من الاقذية والاشربة بما يليق بهم . (١) وهذا مثل واحد من المارستانات الكثيرة بالاضافة الى ما انشاء من خانقاهات للصوفية . (٢) والحق ان المرافق العامة التي انشأها هذا السلطان لتحسين احوال الناس وتيسير التنقل على الغرباء والحجاج وما الغاء من رسوم وضرائب (٣) تحتاج دراسة مستقلة تفيض عن حدود هذه المقدمة الصغيرة .

وكان لصلاح الدين مبدأ جرى عليه في حياته ، ولهذا المبدأ

ثلاثة فروع :

١- الحلم ، فهو يفضل دائما العفو على انزال العقوبة (٤)

(١) المصدر نفسه

(٢) المقريزي ٢ ، ٢٦٣

(٣) ابن أياس ١ ، ٧٠ ، ابن جبير ٣٢

(٤) ابوشامة ٢ ، ٢١٨

٢- السخا ، وهو ايضا لا يريد طلب قاصد ، حتى انه توفي وخزائنه

تكد تكون خالية من الاموال لكثرة هباته . وكان لهذا أثرني حياة الأديب (١)

٣- للمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعي ^{مبسط} للخاصة

والعامة وانما هو (صلاح الدين) عبد للشرع وشحنه (٢)

وقد كان كاجتماع هذه الخصائص في شخصه سببا في نجاح

جانب كبير من حركته الاصلاحية . الا ان هذا لا يعني ان الرخاء قد عم الناس وان

العدالة شملت الجميع . ولا بد ان يكون هناك فرق بين ما يطلبه الحاكم وما

يستطيع تحقيقه ، ولناخذ مثلا على ذلك من مقيدات القاضي الفاضل نفسه -

كانت الأعياد في زمن الناطميين مسرحا لمجاوزة الحدود الاخلاقية ، فلما كان زمن

الأيوبيين صدرت أوامر السلطان بالنهي عن ضروب من اللهو معينة وعن التظاهر

بالمكر ، ولكن " يفيد القاضي الفاضل في متجددات عام ٥٩٤ هـ هذه الملاحظة

" ظهرني هدم العدة من المنكرات ما لم يعهد في مصر في وقت من الأوقات ، ومن

الفواحش ما خرج من الدور الى الطرقات ، وجرى الماء في الخليج بنعمة الله تعالى

بعد القنوط ووقوف الزيادة في الذراع السادس عشر ، فركب أهل الخلاعة ونزو

البطالة في مراكب في نهار شهر رمضان ومعهم النساء الفواجر وبأيديهن المظاهر

يضررن بها وتسمع اصواتهن ووجوههن مكشوفة ، وحرنا وهن من الرجال معهن

(١) المصدر نفسه ، ٢١٧

(٢) ابن جبير ٢٩٧ - ٢٩٨ " الشحنة صاحب الشرطة " ابن جبير ٩٨ ،

في المراكب لا ينعون عنهم الايدي ولا الابصار ولا يخافون من أمور ولا مأمور
شيئا من اسباب الانتكار * (١) وذكرني رسالة الى صلاح الدين ان " المعاصي
في كل مكان بادية ، والمظالم في كل موضع فاشية ، وقد طلع الى الله تعالى
منها ما لا يتوقع بعدها الا ما يستعاز منه " (٢) وقد يحمل الاسلوب البياني
الذي ينتحيه الفاضل على ^{أحيان} المبالغة ، ولكن تبقى هناك حقيقة لا قبل لنا بردها ،
وهي ان هناك مظالم ومعاصي وان الفاضل لو اراد ان يناقى لسيده لأخفاها
ليقول له ان عهده زاهر وان العدالة لوجوده قد عمت ، غير ان القاضي الفاضل
كان مخلصا وكان يعلم ان صلاح الدين حرص على ان يعرف الواقع وان يحاول
اصلاح الأمور ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ومثل هذا يشير الى حقيقة هامة
وهي ان تفاهم الحاكم ورجاله على غاية اصلاحية - دون منافقة المروءسين -
يهيئ السبيل الى انجاح الخطة ويجعل النسبة الكبرى في جانب الخير .
وفي مثل هذا عمل الجرمون ^{الرائع} العمل المتأمل على تغيير الوضع المعاصي
لاحلل جديد في مكانه يمكن ان تتم النتائج التالية :

(١) المقرئ ٢ : ١٤٣

(٢) أبو شامة ٢ ، ١٦٦

- ١- التوفر على الدراسات الدينية من نقه وحديث وقرارات وتفسير (١)
والنفور من الدراسات الفلسفية والتخرج من المناظرات العقلية . (٢)
- ٢- ظهور نشاط واسع في علم الطب لسد حاجة البيمارستانات
الكبيرة . (٣)
- ٣- تشجيع حلقات الأُذُب وبخاصة الأُذُب الذي يؤيد الاتجاه الجديد (٤)
- ٤- استحداث رسوم جديدة في النواحي الادارية والعسكرية وغيرها . (٥)
- ٥- ضياع كثير من الآثار الفكرية التي تخالف في اتجاهها الحركة
الجديدة او اعدامها عمدا . (٦)

-
- (١) يدل على هذا المؤلفات العديدة في هذه الموضوعات . السيوطي ١٨٩ ، ٢١٤ ،
٢٣٦ ، ياقوت ١٥ ، ٦٦ ، النعماني ١ ، ٥٢٩ ، ابن خلكان ٢ ، ٤٧١ .
 - (٢) اظهره شهاب الدين السهروردي في هذه الفترة لاشتغاله بالفلسفة خير
مثال على ذلك " ابن ابي أصيبعة " ٢ ، ١٧١
 - (٣) ابن ابي أصيبعة ٢ ، ٢٤٦ ، ١٣٣ وغيرها من الصفحات
 - (٤) يظهر هذا التغيير في أسلوب شعراء العصر .
 - (٥) راجع الفلقشندي ١٤ ، ١٤ - ٣٧
 - (٦) ابوشامة ١ ، ٢٦٨

٦- تهرب الشعراء والأدباء من المبالغات التي تعطيها العقيدة

الفاطمية الى المبالغة في الشكل والاسراف في النواحي البديعية . ولذلك فقد
قد نصف هذا العصر بشي من الحرج في قبول الرأي المخالف في الفكر والعقيدة
والاتجاه السلوكي ، والميل الى شي من التزمّت والأخذ بالتقاليد ورعاية "المظاهر" .

- ٢ -

ولما كانت الرسوم الادارية لا تمننا في فهم القاضي الفاضل ، فانا لن
نوجه الاهتمام منها الا الى ديوان الانشاء ، فان فهمنا لوضعه حينئذ نوصلة
بموقف القاضي الفاضل فيه .

اصاب ديوان الانشاء زمن الأيوبيين شي من التغيير الذي
اصاب غيره من النظم الفاطمية ، لكن بما ان علاقة القاضي الفاضل بالكتابة بدأت
فيه زمن الفاطميين فيهمنا ان نخصه بقسم من بحثنا هذا .

كان ديوان الانشاء يتألف زمن الفاطميين من عدد من الكتاب
لكل منهم عمل خاص يقوم به ، من تلخيص كتب ، او مراجعتها (١) ، وكتابة تقليدات
في الحوادث الهامة ، ومكاتبة الملوك والحكام الأجانب ، (٢) ومكاتبة رجال
الدولة وكبرائها ورجوهم من الأجناد والقضاة والكتاب وغيرهم ، وانشاء تقليدات
ذوي الخدم الصغار والامانات وكتب الاعيان ، (٣) ونسخ ما في الديوان من
كتب وما يصدر عنه ، وتبويض الانشاءات والسجلات والتقليدات (٤) وغيرها .

(١) المقرئ ٢ : ١١٧ - (٢) المصدر نفسه ، ١٢٦

(٣) المصدر نفسه ، ١٢٠ (٤) المصدر نفسه ، ١٤٤

يشرف عليهم جميعا كاتب كبير يشترط فيه ان يكون واسع الاطلاع ، له مقدرة على فن الانشاء يقال له رئيس ديوان الانشاء ، (١) او صاحب الدست الشريف ويخاطب بالشيخ الأجل ، ويقوم بتسليم المكاتبات الواردة مختومة ويعرضها على الخليفة . (٢) ويليه اثنان في الرتبة ، الموقع بالقلم الدقيق على المظالم المروجة ، وصاحب القلم الجليل الذي ينفذ ما يقوم به صاحب القلم الدقيق ويبسطه ويرسله للخليفة . (٣)

ولعل القاضي الفاضل كان في هذه الفترة الموظف المسؤول عن انشاء التقليدات والكتب في الحوادث الكبار والمهمات ، لأن ما وصلنا من سجلاته ورسائله التاريخية في آخر العهد الفاطمي يدل على ذلك .

ثم أخذت مكانته ترتفع حتى أصبح يقوم بعمل " موفق الدين بن الخلال " رئيس ديوان الانشاء في ذلك الحين . ولما تم الانقلاب على يد صلاح الدين ، أصبح القاضي الفاضل يقوم بالوزارة وكتابة السرمع ، و هسي الوظيفة التي حلت محل وظيفة رئيس الديوان ، وأصبح عمله في الديوان ككاتب سر " قراة الكتب الواردة على السلطان وكتابة اجوبتها ، وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها ،

(١) ابن الصيرفي ٩٥٤

(٢) المقرئ ٢٤٤٤

(٣) القلقشندي ٤٩١

وتصرف المراسيم رداً وصدرًا ، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها * (١) وكان يعارنه في ديوانه فثتان من الكتاب ، كتاب الدست ، الذين كانوا يعارنونه بالجلوس في دار العدل ويقرأون القصص على السلطان ويوقعون عليها بأمره ، وكتاب الدرج ، الذين كانوا يكتبون الولايات والمكاتبات ونحوها مما يكتب عن السلطان ، وربما شاركهم في عملهم كتاب الدست (٢) .

ولا بد لنا أخيراً من كلمة صغيرة في اللغة الناحية الأدبية . فقد ظهرت في هذه الفترة حركة واسعة في التأليف ، واهتم الناس بشعر المتنبي وأخذوا يدرسونه ويشرحونه . (٣) واستعملوا فنونا شعرية جديدة بعضها من منابع البيئة مثل وزن الزكالكش الذي يسميه العراقيون كان وكان ، وبعضها وأند مثل الموشحات التي برع فيها ابن سناء الملك وألف فيها كتابه " دار الطراز في صنف الموشحات " .

وتابع صلاح الدين سياسة الفاطميين في اهتمامهم بأمر الأدباء والشعراء وتشجيعهم واغداق الأموال عليهم في حال إعجابه بشعرهم . كما فعل مع أبي حفص عمر بن أبي نصر المعروف بأبن الشحنة حين وهبه ألف دينار على قصيدة مدحه بها ، أولها :

(١) الفلقشندي ٤ ، ٣٠

(٢) المصدر نفسه ، ٣٠

(٣) ابن الأثير - الوشي المرفوم ١٠

سلام مشرق قد براه التشوق على جبة الحَيّ الذين تفرقوا (١)

ومع المذهب بن مناني عندما أنعم عليه بالخلعة والضيعة
عندما أنشده وهو مخيم بظاهر حمص قصيدة أولها :

ما نام بعد البين يستحلي الكرى إلا ليطرته الخيال إذا سرى (٢)

وقبرهما

وحذا حذولا صلاح-المدين في تفریب الأدبا والشعرا اقربا^{وه}
ورجال دولته ، من بينهم القاضي الفاضل الذي كان يرضى مجموعة الأدبسا^{في}
في عصره ويفرهم من السلطان ويعطيهم المراكز العالية ، وقد كان لتضاثر
الجهود هذه في اعطاء الأديب مكانته طلع في ازدهار أدب الفترة .

(١) ابن خلكان ٦ : ٢١٠٤ - ٢١١

(٢) الأصفهاني ٣ : ١٦٩٤

الكتاب الأول

سيرة القاضي الفاضل

مدخلی للتعريف بنسبه واسرته

عبد الرحيم ابن علي بن أحمد بن الفرّج بن أحمد ، ابرعلي ، الملقب

بمحي الدين ، (١) وحجير الدين (٢) البيساني ثم العسقلاني ثم المصري . (٣)

ينحدر من قبيلة لخم العربية . (٤)

اختلف المؤرخون في تاريخ ولادته فذكر اكثرهم (٥) انه ولد سنة

تسع وشرين وخمسمائة ، بينما ذكر بعضهم (٦) انه ولد سنة ستة وشرين وخمسمائة ،

والأصح ان يكون قد ولد سنة ست وشرين وخمسمائة ، ذلك انه اشار في احدى

رسائله الى انه تجاوز السبعين عاما حيث قال " فأن السبعين قد جرت عتبتها ،

وقطعت عفتها ، وأسأل الله الخيرة في القدوم عليه ، واللفظ عند الوقوف بسين

يديه " . (٧) وتوفي سنة ستة وتسعين وخمسمائة حسب اجماع المؤرخين لسببته

ما يؤكد صحة الرواية الثانية في مولده .

ولد في مدينة عسقلان (٨) ونسب اليها ، كما نسب الى بيسان لأن

والده القاضي الأشرف ابا المجد علي بن الحسن ، يتولى قضاءها ونظرها من قبل

الفاطميين مدة طويلة (٩) انتقل بعدها الى عسقلان ليتولاها فيها ، وانتهى به

المقام في القاهرة حيث لقي حتفه سنة ست وأربعين وخمسمائة على أثر عذبة انقذت له رسمته .

(١) المقرئى ٢ : ٢٦٦

(٢) ابن خلكان ٢ : ٢٣٦

(٣) الحنبلي ٤ : ٣٢٤

(٤) ابن خلكان ٦ : ٢٢٠ - المقرئى ٢ : ٢٣٦

(٥) ابو غزالة : ابن خلكان ٢ : ٢٣٦ ، المقرئى ٢ : ٢٦٦

(٦) ابوالفدا ٣ : ٩٨

(٧) الفاضل من كلام الفاضل ، مخطوط مصور ، المصنوع غير مرقم

(٨) ابن خلكان ٦ : ٢٢٠

(٩) المصدر نفسه ٦ : ٢٢٠

ذلك انه اختلف مع والي الناحية من أجل " كقد (١) كبير كان له عندهم قيمة كبيرة ،
فداجى الوالي في حقه وأطلقه - فاستدعي الوالي الى مصر لذلك وطولب بمسال
طائل - فاحتمى ببعض أمراء الدولة ، وجعلوا الأثاويل في حق القاضي الأشرف
فاستدعي وصودر الى ان لم يبق له شيء ، ولم يكن معه من الأولاد سوى القاضي
الفاضل فحمل على قلبه وتوفي بالقاهرة " . (٢)

وكان عبد الرحيم احد ثلاثة أخوة نشأوا وأقاموا في بادى أمره في
مدينة عسقلان حتى شب عبد الرحيم فانفصل عن أخويه ليقيم في مصر سعيا وراء
علمه ورزقه ، خلفا أخويه في عسقلان الى ان احتلها الفرنج سنة ثمان وأربعين
 وخمسائة فلجأ اليه حيث كان يقيم في الاسكندرية ، (٣) وشفا طريقهما في ميدان
العمل فيها ثم تمكن احدهما ، وهو عبد الكريم من تحصيل ثروة طائلة نتيجة
عمله بولاية الحكم والإشراف في البحيرة . (٤) الا ان علاقته مع أخيه عبد الرحيم
كانت سيئة وانتهت بشجار بين الأخوة جعل حان عبد الكريم يتضع بين الناس بعد احترامهم
لـه ، وتسببت في تركه عمله . (٥) والظاهر ان سوء خلق عبد الكريم وعدم استقامته كانا
سببا في ثورة أخيه عليه وفي تسبب بعض المشاكل له . فقد كان متزوجا
بامراة موسرة من بني ميسر ، سكن معها في ثغر الاسكندرية ، وأسا عشرتها ،

(١) كذا في الأصل ولعلها كز

(٢) المصدر نفسه ، ٢٢٠

(٣) المصدر نفسه ، ٢٢٠

(٤) اختصاص وظيفة الإشراف المقصود هنا مراقبة الأمور المالية عامة في جهة معينة من قفل

سلطان أو أمير . ويسمى متوليها المشرف " المقفيزى " السلوك ١ ، هامش ١٢٢ ، " .

(٥) المصدر نفسه ، ١٢٢

فسار ابوها الى الاسكندرية واثبت عند قاضيها ضرر ابنته ، فضى القاضي الفاضل
بنفسه الى الدار ، فلم يقدر على فتح الباب الذى من داخله المرأة . فأمر بنقب
الدار ، وأخرج المرأة وسلمها لآبيها وأعاد بناء النقب . (١) وتوصل بعبد الكريم
فناه وطمعه الى ان عرض على الملك العزيز ^{عمر} اربعين الف دينار لقاء ولاية قضاة
الاسكندرية ، لكن الملك العزيز رفض العرض قائلا ، اذا قبلت هذا منه ، اكون قد
بعث اهل الاسكندرية ، وهذا لا انعله ابدا . (٢) وقد قبض على اخيه هذا
عام ٦٠٢ هـ وأخذ خطه بعشرين الف دينار اداها . (٣) وأما اخوه الثاني
فلا نعرف عنه الا ما ذكره ابن العماد الحنبلي من انه كان له هوس مفرط في تحصيل
الكتب ، وكان عنده مائتا الف كتاب ، من كل كتاب نسخ كثرة حتى الصحاح ثمانى
عشرة نسخة . (٤)

(١) المصدر السابق ، ١٢٢

(٢) المصدر نفسه ، ١٢٢

(٣) المصدر نفسه ، ١٦٥

(٤) الحنبلي ، ٤ : ٣٢٤ - ٣٢٥

مراحل حیاتہ

نستطيع ان نقسم حياته المعطية الى ثلاث مراحل متمايزة : أولاها
الفترة بين نشأته الأولى منذ ان انتقل الى مصر حتى نهاية الدولة الفاطمية ،
وثانيها ، الفترة التي عاشها في صحبة صلاح الدين ، وهي تمثل الذروة الكبرى في
حياته ، عامة ، والثالثة ، ما بعد ذلك حتى وفاته ، وهي فترة الانحدار وانحسار
النشاط السياسي ، مع الاحتفاظ بالمكانة المعنوية ، وتوقعه للموت واستسلامه
للمرض والشيخوخة والموت .

المرحلة الأولى من حياة القاضي الفاضل

" ٥٤٤ - ٥٦٤ هـ " " ١١٤٩ - ١١٦٨ م "

بدأ المؤرخون لسيرة القاضي الفاضل الحديث عنه باسهاب منذ انتقاله
الى القاهرة ، واختلفوا في تعيين السنة التي انتقل اليها فيها ، وسبب رحيله اليها .
فأورد ابن خلكان رواية ذكر فيها ان والد القاضي الفاضل أرسله الى القاهرة في
عهد الخليفة الحافظ (١) ليتدرب على الكتابة الديوانية . ثم صحبها برواية أخرى
ذكر فيها انه انتقل اليها مع والده في عهد الخليفة الظاهر (٢) حوالي عام ٥٤٦ هـ . (٣)

(١) تولى الخلافة في مصر منذ ٥٢٤ حتى وفاته عام ٥٤٤ هـ " ابن خلكان : ٢١ ، ٤٠٠ " .
(٢) تولى الخلافة منذ عام ٥٤٤ هـ حتى وفاته ٥٤٩ هـ " ابن خلكان : ١١ ، ٢١٥ " .
(٣) ابن خلكان : ٦ ، ٢٢٠

الا ان غيره ممن آرخوا للقاضي الفاضل ذكروا ان والده ارسله في عهد الخليفة الحافظ الى ديوان المكاتب في القاهرة زمن الخليفة الحافظ ليتدرب على الكتابة الديوانية فيه . (١) اذ كان من العادة كما ذكر القاضي الفاضل " ان كلا من ارباب الدواوين اذا نشأ له ولد وشدا شيئا من علم الاذب احضره الى ديوان المكاتب ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع " . (٢) وقد تكون هذه أصح الروايات ، اذ انه اتصل مباشرة بابن الخلال (٣) رئيس ديوان الانشاء في ذلك الحين وبدأ التدريب على يديه . (٤) وليس بمستبعد ان يكون قد انتقل الى مصر في اواخر عهد الحافظ اذ ان ابن الخلال تولى الديوان منذ اواخر عهد الحافظ حتى عهد العاضد (٥) وكان من اول كتاب العصر الذين اتصل بهم القاضي الفاضل . وقد قص حكاية **أبي** اتصاله به بعد تعريفه بنفسه فقال " وسألني ما الذي اعددت لفن الكتابة من الكتابة والالات فنقلت ليس عندي شيء سوى اني احفظ القرآن العزيز وكتاب الحامسة ، فقال وفي هذا بلاغ ثم **ظهر** أمرني بملازمته فترودت اليه وتدرجت بين يديه ثم أمرني بعد ذلك

(١) المقرئ ٣٦٦ هـ ٢

(٢) المصدر نفسه ٣٦٦ هـ ١

(٣) موفق الدين ابن الخلال ، تولى ديوان الانشاء في اواخر عهد الخليفة الحافظ والظاهر ، وخدم في عهد العاضد ، اشتهر ببقوته في الترسيل ، عاش كثيرا وأضر في آخر عمره ، توفي عام ٥٦٦ هـ " ابن خلكان ٢١٩ و ٦١ " .

(٤) المقرئ ٣٦٦ هـ

(٥) تولى الخلافة في مصر منذ عام ٥٤٩ هـ حتى وفاته عام ٥٦٢ هـ . وكان آخر الخلفاء الفاطميين فيها " ابو شامة ١٩٣ هـ ١ " .

ان أحل شعر الحماسة فحلته من أوله الى آخره ، ثم أمرني ان أحله مرة ثانية وحلته . (١)

قضى القاضي الفاضل مدة وجيزة في القاهرة ، لم تتحسن خلالها احواله المادية ، ولم يرتو فيها غموجه الى المركز والمجد . * ولعله نظم في هذه الفترة البيتين التاليين ، فانهما يشيران الى حاله ونفسيته حينئذ :

ما ضر جهل الجاهلين ولا انتفعت انا بحذفي
زيادتي في الحذق فهي زيادة في نقص رزقي (٢)

وراح يتطلع الى مكان آخر يجد فيه من يقدره حتى قدره ، فقص الاسكدرية حيث اتصل بابن حديد ، قاضيها وناظرها وعرفه بوالده فاستكتبه (٣) واستأثر به في ديوانه حتى ولي وزارة سر العادل بن رزيك بن الصالح بن طلائع (٤) كما يذكر عماره اليمني ، فأعجب بكتابته وطلب من والي الاسكدرية نقله الى القاهرة ليعينه رئيسا لديوان الجيش فيها . (٥)

(١) أبوشامة : ١٩٢٥ - ١٩٣

(٢) الصفي : ٧٣ ، ٢

(٣) ابن خلكان : ٢٢٠ ، ٦

(٤) رزيك بن طلائع ، تولى الوزارة المصرية بعد والده ، وكان يلقب بالفاعر . قتل
شاور عام ٥٥٨ * أبوشامة : ١٣٠ ، ١

(٥) اليمني ، ٥٣

أورد كل من ابن خلكان وابن كثير رواية مختلفة تمام الاختلاف عن رواية عمارة في زمن وسبب رجوعه عودته ثانية إلى القاهرة ، وذكر ابن خلكان أنه عاد إلى القاهرة زمن الخليفة الظاهر ، ذلك أن مكاتبات ابن حديد كانت ترد بخط القاضي الفاضل إلى مصر ، وهي في غاية البلاغة ، فحسده كتاب الانشا على فضله وخافوا من تقدمه عليهم وسعوا إلى الظاهر به محتجين بأنه مقصر في الكتابة وكان صاحب ديوان الانشا القاضي ابن الزبير (١) فقال للخليفة : يا مولانا ، هذا الرجل ما منه تفصير ، وإنما حسده هؤلاء الكتاب وسعوا به ليؤذيه مولانا الظاهر ، فقال الظاهر ، فتكتب إلى ابن حديد ليرسله إلينا ويكتب لنا . (٢) وذكر ابن كثير أن شاور (٣) أول من استكتب القاضي الفاضل ، فقد استدعى به من أسكندرية من باب السدرة فحظي عنده وانحصر منه الكتاب بالقصر لما رآه من فضله وفضيلته . (٤)

والأرجح أن رواية عمارة اليمنى أصح من هاتين الروايتين ، ذلك أنه عاصر كلا من القاضي الفاضل والملك العادل بن رزك ، وذكر في تاريخه لسيرة ابن رزك قوله " ومن محاسن أيامه ، وما يؤرخ عنها بل الحسنة التي لا توازي واليد البيضاء " التي لا تجازى خروج امرء إلى والي الإسكندرية بتسيير القاضي الأجل الفاضل ،

(١) أحمد بن علي بن الزبير ، من شعراء شاور السعدى ، توفي عام ٥٦٢ هـ " ابن تخرى بوى ٣٧٤ ، ٥

(٢) ابن خلكان : ٢٢١ ، ٦

(٣) شاور بن مجير السعدى - تولى الوزارة المصرية عام ٥٥٨ هـ ومات مقتولا على يد صلاح الدين عام ٥٦٤ هـ

(٤) ابن كثير : ١٢ ، ٢٥٩

ابي علي عبد الرحيم بن علي البيساني الى الباب، واستخدامه في حضرته وبين يديه في ديوان الانشاء * (١) كما اشار القاضي الفاضل في مدحه لابن رزيك الى فضل الأخير عليه، ورفع منزلته حين قلل :

رعى لي ، رعاء الله ، اكرم صحبة	واخطأت بدر التم ليس له صحب
وبدّلني من حالة ذبت رحمة	بها حالة قد هز معطفها المعجب
وأحضرنى من مجلس الأنس حضرة	لعميشي بها خفض ، وقد رى بها نصب
وكان لي الدهر الغشوم محاربا	وقد وضعت أوزارها عندك الحرب (٢)

علا شأن القاضي الفاضل في مصر زمن انعادل بن رزيك الذي عقد معه اواصر مودة وصداقة لم تطل مدتها ، اذ سرعان ما اغتيل ابن رزيك بسيد شاور (٣) تاركا الفاضل تائها حائرا متسائلا ، هل يتصل بقاتلي صديقه ويبقى محافظا على مكانته اويبتوى ويتخلى عن طموحه فتضيع حقوقه * ولعله حاول ان يتحرك في بادى الامر على شاور ، فاضطهد كما يدل قول الشاعر البغدادي ابي الحسن علي بن نصر بن عقيل ، على سبيل التنديد له بقوله " انا خلصتك في أيام شاور مرتين ودافعت عنك دفعتين ، وهذه فصائدك في مدحي ، ومقاصدك لمنحي " (٤) لكنه عاد فالتصّل بالكامل بن شاور الذي أعجب به واتخذ منه صديقا ثم سعى له عند ابيه شاور

(١) اليماني ٥٣٦

(٢) البيساني : ١٥٩٦١

(٣) فتلّه سنة ٥٥٨

(٤) ابوشامة : ٢٤١ ، ٢٤٢

فعينه مساعدا لابن الخلال في ديوان الانشاء (١) فازدادت منزلته علوا ورفعة وبدأت
امانيه في الوصول الى رئاسة الديوان تتحقق تدريجا . فقدم مرض ابن الخلال واضطر ان
يلزم بيته ، وكان القاضي الفاضل ينوب عنه في العمل حتى بدأ زملاؤه الكتاب يحسدونه
وينقمون عليه ، ولما تولى اسد الدين شيركوه الوزارة طلب كاتباً ، فظن رؤسا الديوان
ان هذا امر لا يتم وان اسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله ، فأرسلوا بالفاضل اليه
وقالوا لعله يقتل فنخلص من ^{مناجحتهم} مؤامرتهم لنا . (٢) لكن حسابهم اخطأ ، فاتصل بأسد
الدين الذي أعجب باتقائه وسفته ونصحته فاستكتبه ورفع من قدره حتى ملك صلاح الدين
فاختاره مشيراً ووزيراً واستعان به على ما اراد من ازالة الدولة الفاطمية . (٣)

وبعد وان عبد الرحيم نال لقب القاضي الفاضل قبل اتصاله بصلاح الدين
از يذكر المقرئ في تلقيبه " بالقاضي الفاضل " انه كان معتقلاً مع الكامل ابن
شارر في دار ملهم أخي ضرقام عند نشوب الفتنة بين شارر وضرقام سنة ٥٥١ هـ ،
وانعقدت بين الاثنين مودة وعداقة أثمرت عند انتشار شارر على خصمه ضرقام ومودته
الى الوزارة - از أدخله " الكامل الى ابيه ومدحه عنده ، واثق عليه نساء حينئذ
بالقاضي الفاضل . (٤)

(١) المقرئ ٢٦٦ ، ٢٦٦

(٢) المصدر نفسه ، ٢٦٦

(٣) المصدر نفسه ، ٢٦٦

(٤) الشيال ، ١٥١ عن المقرئ ، اتعاظ الحنفا في اخبار الائمة الخلفاء ١٥٥

وقد أورد القلقشندي رواية مختلفة بتسميته بالقاضي الفاضل اعتقد
انها اصح من الرواية الاولى ، ذكر فيها ان لقب القاضي كان يطلق على ارباب
الأقلام في الجملة ، سواء كان صاحب اللقب متصديا لهذه الوظيفة او غيرها كسائر
الكتاب العلماء ومن في معناهم . (١) وان لقب الفاضل كان اكثر ما يقع في
القب العلماء ، وانه ربما وقع في بعض القاب الكتاب ، وهو خلاف الناقص - والمراد
به زائد الفضل وبه لقب " القاضي الفاضل " عبد الرحيم البيسانى الكاتب
المشهور . (٢)

ويتمثل لنا القاضي الفاضل في هذا الدور من حياته في صورة شاب
طموح يريد ان يبلغ المجد بموهبته في الكتابة . وقد اعلنت موهبته عن نفسها لذوى
الشان يومئذ وأحرز نفسه بينهم منصبا في الديوان - وكسبت له بين الشعراء والكتاب
متزلة يمدح من اجلها ويقصد ، وهو موظف مخلص للدولة التي يعيش في ظلها ،
فخلص لمبادئها حتى انه يمدح الخلفاء الفاطميين ويشيد بأخلاقهم عامة ويرى انهم
وارثو الأرض كلها .

(١) القلقشندي ٥٠١ ، ٤٥١

(٢) المصدر نفسه ٦ ، ٢٢

لکم فی زبور اللہ یا مبلغی الذکر وراثۃ ہذی الارض والخلق والایمیر
فلا تحسبوا مصرًا تخص بملککم فلا مصر الا سوف یلجا الی مصر (١)

وہو ازہ مدحہم ندد بالعباسیین وبشعارہم " ای السواد " فقال :

نفینا سواد اللیل عن دولة الہدی فلا رایۃ سودا ولا أمة سودا
وبین مجازاة ضربنا وجـزیرۃ فمن طائع أآدی ومن خالع أودی (٢)

ومدح الخلیفۃ العاضد وحاول دائما التقرب من الطبقة المکلا الحاكمة کما سنحت الفرصۃ
فہو فتراء عام ٥٤٩ هـ فی الوفد الذی قصد طلائع بن رزیک لیمثلہ فی الوزارة . (٣)
ووصل أسبابہ بعد انتقالہ الی القاهرۃ برزیک بن طلائع الذی تولی الوزارة عام ٥٥٨ هـ
ومدحہ . (٤) کما مدح شاور وأشار بشجاعته وإخلاصه لفاطمیین وأشار الی
استنجاہہ بالفرنج لیطرد اسد الدین شیرکوه من البلاد :

(١) البیہاقی ، ٢٢٠

(٢) المصدر نفسه ، ١٩٦

(٣) ابن میسر ، ١٤٦٢

(٤) البیہاقی ، ١٥٦

أنت عليه الحد بالحد ضاربا بسيف اذا ما اهترقد بان سكره
علاكم علا أسكرته بمدامها نلم يجبه الا قام بالسكر عذره

وزعم في هذه القصيدة ان مجيئ الفرنج لنصر شاور انما هو آية نبوية لانها حققت نفع من
يخش منه الضرر . (١)

اما شجاع بن شاور فكان له اكبر نصيب من مدح القاضي الفاضل لانه هو
الذي توسط له لدى ابيه حتى عينه مكان ابن الخلال .

ومن تصدى لرؤية القاضي الفاضل في هذا الدور من حياته لم يكده ينفي عنه
"الوصولية" فهو ثانوى القيمة ، صغیر المكانة نسبيا ، مهمه ان يؤمن وظيفته ويحرص على
استبقائها ، وليس ثمة من قلق داخلي يعكر عليه هذا الاندفاع في سبيل الفاطمية ورجالاتها ،
يؤثر الاستنصار بالفرنج في سبيل المنافسات الفردية على القضية التي يمثلها اسد الدين
شيركوه قائد نور الدين . ولذلك فان الناظر اليه في المرحلة الثانية قد يحبره ماضيه نيتسائل
هل استمر القاضي الفاضل في هذا المبدأ الوصلي وانجاز الى صلاح الدين لانه وجد فيه
كسبا اكبر اوان الحقيقة بزفت لمعينه فجأة فاذا هو حيث قد ران يكون مددنا باخلاص
حقيقي . ويخيل اليّ وأنا استعرض حياته في المرحلة الثانية ان صلاح الدين هو الذى
استكشف القاضي الفاضل . وان الفاضل ايضا وقع على حقيقة الموقف الذى يمثلته صلاح الدين
وتضافر الرجلان على تحقيق غاية كبيرة احسا بها ثم تبينها رأى العمى وملا في اخلاص
منقطع النظر ، كل في ميدانه ، على تحقيقها .

(١) البيهقي ، ٢٠٠

المرحلة الثانية من حياة القاضي الفاضل

٥٦٤ - ٥٨١ هـ (١١٦٨ - ١١٩٣ م)

في كنف صلاح الدين

أخذ القاضي الفاضل في مطلع هذا العهد جانب الاتجاه السياسي الجديد الذي كان يرمي إلى القضاء على الفاطميين وعلى مذهبهم وتعاليمهم وآثارهم المكتوبة . وكان تنكبه للعهد الماضي ملموسا في عدة صور ، فهو يفر صلاح الدين على إحلال المذهب السني محل الشيعة (١) ويكاتب الفاطميين تعرض عليه قبل أن تذهب للحرب حتى ينتقي منها ما يستحق البقاء ، (٢) بل أنه لا يشفع في أي حركة تنور ضد الوضع الجديد ، وحادثة عمارة (٣) مثل بارز على ذلك . فقد كان عمارة من الشعراء الذين عاصروا القاضي الفاضل في أواخر العهد الفاطمي وأول عهد صلاح الدين ، وكان معجبا بالفاضل ، مدحه بمدائح عدة ، وأثنى على ابن رزيق لآخضاره من القاهرة . إلا أن عمارة ظل متعصبا للفاطميين بعد انتهاء حكمهم ، وكان يسجد لهم علنا ، كما رثى عهدهم ورثاهم بقصيدة طويلة قيل إن صلاح الدين لما وقع عليها تغبر عليه ، وقيل أنه استغنى في قتله في قوله في قصيدة موصية :

(١) المقرئى : ٢ : ٣٦٦

(٢) أبو شامة : ٣٩٦

(٣) عمارة اليمني ، شاعريمني الأصل - جاء إلى مصر حوالي عام ٥٥٠ هـ ومدح خلفاءها الفاطميين ، اتهم بالاشنوالقبي مؤامرة مع الشيعة لقلب نظام صلاح الدين فشنق عام ٥٦٩ هـ - ابن خلكان : ٣ : ١٠٧ ، ١١٠ هـ .

وكان مبدأ هذا الدين من رجل سعى فأصبح يدعى سيد الآم
فأنفى العلما بقتله ، وشجعه القاضي الفاضل على ذلك . فعملنا استشاره صلاح
الدين في الاكتفاء بضربه قال ، الكلب يسكت ثم ينيح ، قال فيسجن ، قال ، يرجى
له الخلاص ، قال فيقتل ، قال الملوك اذا أرادوا شيئا فعلوه ونهض . فأمر بحلبه
فلما اسكوه قال ، مروا بي على باب القاضي الفاضل ، فلما رآه مقبلا قام ودخل واغلق
الباب ، فقال عطارة :

عبد الرحيم قد احتجب ان الخلاص هو المعجب (١)

وكان عبارة يقول :

نست رافة الدنيا فلا الدهر عاطف علي ولا عبد الرحيم رحيم
عفا الله عن آرائه كل فترة كلام العدى فيها علي كلوم
وسامحه في قطع رزق بفضله وعلت اليه والزمان نسم
ألاهل له عطف علي فأنسني فقير الى ما اعتدت منه عديم (٢)

واعتمد ان هناك تغييرا أصيلا حدث في نفسه الفاضل ، ويستطيع
المتتبع لخط حياته من بعد ان يلحظ كيف اندفع مع هذا الاخلاص الجديد
الى النهاية ، ولم يكن موقفه امعانا في " الوصلية " التي وجدت حذرا كسبا وفيرا ،

(١) الصفدي^{النبش} ٢ : ١٨٠ ،

(٢) ابوشامة ١ : ٢٢٣ ،

تحتي العهد الصلاحي ، ومن اسباب ذلك في رأيي :

١- ان القاضي الفاضل وان وصل اسبابه بالفاطميين فان العقيدة

الفاطمية لم تعمق في نفسه ، وان انضوا اليهم كان يوجد صراعا مذهبيا في نفسه ، فلما وجد الفرصة سانحة تغلب لديه الميل السني فسانده حتى النهاية ، وربما لم تكن الشواهد على هذا الغرض بيينة واضحة ولكني اؤثر ان ارن في اخلاص القاضي الفاضل ثورة نفسية على ترده السابق وتكديرا عن خضوعه لظروف البيئة التي عاش فيها .

٢- ان شخصية صلاح الدين هي التي رسمت نقطة التحول في حياته ،

فان اعجابه به وايمانه بغاياته كان كافيا ليدفع به في هذا الطريق على نحو مخلص .

٣- انفق القاضي الفاضل المرحلة الأولى من حياته في جو طابق

بالاضطراب السياسي الداخلي والخارجي ، وشاهد وزراء الفاطميين يتقاتلون على المناصب ويستعينون بأعدائهم الفرنجة للمحاذنة عليها^(١) . كما شاهد الفرنجة يدخلون البلاد ، يخربونها ويستغلون اموالها ، ولم يفسس والده وهو يتعذب في محتته الناتجة عن ظلم الحكام والتي عجلت بوفاته . ولعل هذه العوامل ولدت في نفسه حقدًا على الفاطميين ووزرائهم المتأخرين الذين اضطروا ان يمدحهم ليصل الى هدفه الذي طالما تمنى تحقيقه ، واستطاع ان يحققه على يد صلاح الدين . فقد وقف الى جانبه

(١) كما فعل شارح حين تضامر مع الفرنج عام ٥٥١ هـ ليمنع شركوه من جهة مد

نفوذه ، " ابو شامة ١٣١٤ " .

(٢) ابن الاثير ١١١ هـ ١٤٨ - ١٤٩

منذ البداية يشجعه على ما كان يقوم به من اعمال اصلاحية في مصر ، حتى آن الاوان للفضا على الدولة الفاطمية ، فشجعه وهلل له عندما قام بحملته هذا ، وشعر بشي من الراحة لان أمنية كبيرة من أمنيه تحققت .

٤- انفتح امامه المجال الأوسع لتحقيق الأمنية الثانية وهي الكبرى فقد كان القاضي الفاضل فلسطيني الموطن من عسقلان ، اقتضبت أرضه وتشردت عائلته بعد ان احتل الفرنج البلاد ، كما قاسى في طفولته من عذاب عدم الاستقرار والتشرد اللذين سببهما الصليبيون له ولعائلته . وشاهد الصليبيين في مصر عدة مرات حين جاءوا يريدون احتلالها وأرهبوا أهلها بطلباتهم فنقم عليهم ونذر نفسه لمقاومتهم ومحاربتهم واستخلاص البلاد منهم . ولم يترك فرصة صغيرة ولا كبيرة تسنح له منذ البداية دون ان يتنادى للجهاد ولمحاربة الفرنج ومقاومتهم ويحذر من استغلال أمرهم . وقف الى جانب الوزير شاور في حربه الأخيرة لهم مهددا بعض القبائل المتخلفة عن الجهاد المقدس بحدّة قائلاً " وان سيف الانتقام أُمِد فيكم وتعمدكم عن الجهاد فالآن أي العشرتين (تستقبلون) وأي العذرين تقولون ، تعمدكم عن الجهاد الذي فرضه الله على الخلق عموماً وأرجيه عليكم خصوصاً لأنكم تنزلون بلاداً وأعمالاً وترزقون ... تنالاً نياي حق تستحقونها اذا لم تناضلوا ، وأي فرق بينكم وبين نساكم اذا لم تقاتلوا ، ولقد ألحقتم العار بالعشائر وذخرتم في الأيام شدّ الذخائر " (١)

(١) اندر العظيم من ترسل عبد الرحيم ، مخطوط مصور

ولم يترك فرصة تفوته دون التذكير بالجهاد ، فقد ذكره بسجله الخاص بنولية ابن
مصال نعيم الاسكهدرية (١) ولاسند الدين شيركوه (٢) كما ذكره لصالح الدين (٣)
في سجله وفي اذنه ، فوجد لديه اذنا صاقية راح يغذيها بأرائه التي أثمرت وأعطته
ما أراد وجعلته يرى أمنيته الكبرى تتحقق فيدخل القدس وعسقلان وطبرية وهكذا ويشاهد
بأفي المدن الفلسطينية متحررة . شعر عندئذ بالكثير من الراحة والطمأنينة لأنه
أدى رسالة كبرى لوطنه .

اذن يمكننا ان نقول : ان أهم عامل في تحول القاضي الفاضل هو انفتاح
نفسه بشدة على معنى الجهاد وهي الغاية التي كرس لها قلمه ودفع بصلاح الدين
الى اعتناقها ، وهذا وحده كاف للتدليل على ان ما أصاب تفكيره نفسية القاضي الفاضل
كان أعمق من مجرد الكسب المادي او الجاه في ظل دولة جديدة .

وهكذا كان اتصال القاضي الفاضل بصلاح الدين بداية سجل جديد في
حياته ، فقد أصبح الشخص الثاني في البلاد يشير على السلطان وأولاده فيعملون
بمشورته ، ويهتم بمصلحة السلطان وأولاده وينحهم ما في وسعه من تدبير وإدارة ،

(١) القلقشندي : ١٠ ، ٢٧٤

(٢) المصدر نفسه : ١٠ ، ٨٤ - ٩٠

(٣) المصدر نفسه : ١٠ ، ٩١

(٤) للقاضي الفاضل رسائل طويلة في هذه المناسبات ، تراجع في صبح الاقصى ٥٠٦٦ - ٥١٠
وفي مخطوط " من ترسل القاضي الفاضل " ، ر " الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم " .

ويعمل بكل اخلاص وثقان حتى بات السلطان يعتمد عليه اعتمادا كبيرا . وتمكن
بداهته وحكمته ان ينجي صلاح الدين من الوقوع في أيدي الفرنج عام ٥٧٢ هـ ، ذلك
ان صلاح الدين قصد مع بعض رجاله الرملة في نلسطون بمحبة القاضي الفاضل ،
وساروا في منطقة جافة لا ماء فيها ولا دليل ، تغل فيها السلطان وبعض جنوده
وكادوا يتهيمون ، لولا ان قدر الله ان القاضي الفاضل كان يستظهر باستصحاب
جماعة من الكتانية والادلاء ، فلما وقعت الواقعة خرج بدوايه وقلمانه وأصحابه
وثقائه ، وبث اصحابه في تلك الرمال حتى أخذوا خبر السلطان فعدده . وانتفع
السلطان بالادلاء الذين كانوا معه ، ثم فرق القاضي الفاضل ما كان معه من
الازواد على المسلمين والمنقطعين وجمعهم في خدمة السلطان . اما العسكر الذين
دخلوا بلاد الفرنج فقد هلك معظمهم (١) ويعقب ابوشامة على دور القاضي الفاضل
في هذه الحادثة بقوله " وكان الناس في مبدأ توجه السلطان الى الجهاد ودخوله
ودخول الاجل الفاضل معه الى البلاد ربما تحدثوا وقالوا لو قعد وتخلف لكان أولى به فان
الحرب ليست من دأبه ثم عرف ان السلامة والبركة والنجاة كانت في استصحابه " . (٢)

ثم شارك السلطان صلاح الدين في رحلته الاولى الى الشام بعد ان
استتب له الامر في مصر وشاهد معه فتوحاته داخل سوريا ووقف الى جانبه يشجعه ويكتبه
البشائر الى ذوي النفوذ في البلاد الاسلامية ، واضطر ان يفارقه فترة قصيرة ينم فيها

(١) ابن واصل : ٦١ ، ٦٢

(٢) ابوشامة : ٢٧٣ ، ١

فتوحاته في سوريا ويشرف على العمليات الحربية فيها ، ليقوم هو " القاضي الفاضل " بمراقبة الأعمال الادارية والحربية في مصر ، ويشرف على تجهيز الجيش المصري استعدادا لغزو فلسطين واستردادها من الفرنج . حتى انه حالما طلب السلطان مجيئه اليه عام ٥٨٣ هـ جاء مع جيش مزود برئاسة تقي الدين عمر ، ابن اخي صلاح الدين (١) واستقر في دمشق للاستئناس والاشراف على امورها تاركا صلاح الدين وجيشه واعوانه يفقدون فلسطين لمحاربة الفرنج ، وما ان علم بفتح القدس حتى ذهب اليها ليشترك صلاح الدين وجنوده فرحتهم وليكتب البشائر بذلك الى الخليفة ببغداد .

وكان السلطان يعتمد عليه في اموره الخاصة ويستشيريه قبل ان يقدم على أى عمل مهما كان خاصا . فعندما قرر ان يوزع ملكه بين اولاده استشار القاضي الفاضل ، بنولية ابنه العزيز عثمان مصر ، والأفضل دمشق ، والظاهر حلب ، وابن اخيه تقي الدين عمر حماه وبعض ضواحيها ، وأخاه العادل اتابكا للعزيز عثمان مع اعطائه بعض الاقطاعات . فوافقه على ذلك وصحب العزيز عثمان الى مصر عام ٥٨٥ هـ لمساعدته في الحكم بها ويشرف على تجهيز الجيش والاسطول ، وتحضير المعدات الحربية وارسالها الى صلاح الدين في عكا . (٢) وكانت " امور الممالك بمصر بحضوره مستتبه ، وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبه ومحبة ، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه دائم الاعتماد والاستناد الى احسانه واركانه ، فان استغده خاف على ما وراءه من المهاد ، وان تركه نال وحشة التطرد بالقضايا والأحكام ، وكان يكاتبه بشرح الأحوال

(١) ابو شامة ٢١ : ٥١

(٢) المصدر نفسه ٢١ : ١٦٥

يستشيرهم والنجايون^(١) مترددون بالمكاتبات والمخاطبات والاستشارة في المهمات . . (٢)
وقد لعب في هذه الفترة دورا كبيرا ، اذ كان في مصر موضع السر والخبر ، فهو يتسلم
الأخبار من صلاح الدين في عكا ليرسل بها الى حكام المسلمين في بغداد والمغرب
واليمن ، ويتسلم اخبار الفرنج في الغرب ليخبر السلطان بها . ويرسل له
في الوقت ذاته مخررا بكل ما يجري في البلاد من أمور وتطورات وما يعد من تجهيزات
حربية . ووقف في هذه الفترة وقفة قوية ناضل فيها بقلمه خير قضا ل يفقد شهر بحاجة
السلطان الى قوات جديدة وتقويات واسلحة فراح يرسل في طلبها من حكام المسلمين
مستعطفا ومستنجدا وموئنا وقت الحاجة ، مذكرا اياهم بضرورة الجهاد لتخليص السهلاء
وبواجبهم المقدس ، وبحاجة الاسلام الى توحيد القوى وجزائهم في الآخرة . قال في
احدى رسائله : " فالبدار الى الفجدة البدار ، والمسارة الى الجنة فان البحار
لا تلقى الا بالبحار ، والملوك الكبار لا يقف في وجهها الا الملوك الكبار " . (٣)
وقال في أخرى مستعطفا ومنها الى خطر الفرنج : " وما بين المسلمين والفرنج الا
واحدة كلمح البصر ، ونحن نرصد تلك الواحدة ، ولا نخفى عنها عيوننا الواحدة ،
فيا جيران بيت الله اسهروا لاستيهاهما ، وأتوا البيوت فانتم على ابوابها ، واستنظروا
للرحمة فانتم مجرى سحابها ، اين سهام الأشجار التي تكفيها طواق الليل والنهار ،

طوارق

(٢) المصدر السابق : ٢٠٢ ، ١٨٢

(٣) القلقشندي : ٢٥٠ ، ٢٦ - ٢٦

نحن نعلم ان أقدار الله ستجرى بما وعدته من نصر دينه ، ولكن استعجلوا لنا .
الأقوار فنحن قد خلقنا من عجل وقد أرينا الى جبل من عرفاتكم كذلك الجبل * . (١)
وأرسل رسائل عديدة فيها الكثير من التوسل والعتاب والطلب دون ان يجد
صدى لكلماته في كثير من الأحيان ، فكان يغضب في نفسه ويخبر صديقه العماد
عائبا على هؤلاء الحكام .

طرق جميع الأبواب لتجهيز نجدات الى السلطان ، وتمكن ان
يرسل له ما أمكنه من مصر من جنود ومعدات ، ولما رأى ان الحالة أصبحت يائسة
الى حد ما وجه اهتمامه الى السلطان وراح يكتب له الرسائل الواحدة تلو
الأخرى يثبت عزيمته ، ويشجعه على تحمل الضائقة مذكرا اياه بفتوحاته السابقة
وانتصاراته ويهدفه الذي بدأ بتخليص البلاد المقدسة من الفرنج ، ويجزائه عند
الله نتيجة جهاده ، ويحثه وينبهه انه اذا توانى او تخاذل ضاعت جميع جهوده ،
سدى ، وعليه ان يستميت او يموت في سبيل الجهاد . وقال له في احداها :
* وما تجرد للعدو من الشرع في آلات الحصار لعا ، وما أرجف به النجدتين
الفرنجيتين الواصلة والبعيدة ، واقتراخ العساكر في هذا الوقت للضرورة ،
والتحاشى العسكر الشرقي الدستور للضجر ، وحاجة المولى من الاتفاق الى ما لا يسعه
التدبير ويضيق عنه الامكان ، ومطالبة الغني بالزيادة مع الغنى ، والضعيف بأكثر ما

(١) الفاضل من كلم الفاضل ، مخطوط مصور ، ٢٠٤

يحتاج اليه ، ضياع فرصته ، واختلاف رأى بين المشاورين من الجماعة ، وجسود
الأسفة بالآثر ، ويخل الأيدى بالمعونة ، وانفراد المولى بالتعب ، واشتراك الناس
في الراحة ، وما ابتلي به المسلمون من مرض اظهروه ليكون لهم عذرا في القعود ،
وكنه المولى على نفسه فلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس ، فهذه الأمور وإن
كانت شديدة وزائدات على العوائد ، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر ، وحسن
الصبر ليشعره ان صبره يعقبه النصر ، وحسبته يعقبها الأجر . ولولم ير الله
تعالى ان قوة مولانا يياشر النصر ويحضرها ، فليس الا التجرد للدعاء ، والتجسد
للفضا . فلا بد من قدرة مفعول ودعاء مقبول ومن الأمثال المنظومة

نحن الذين اذا علوا لم يبطروا

يوم الهياج وان علوا لم يضجروا

ومعاز الله ان يفتح علينا البلاد ثم يغلقها ، وان يسلم على يدينا القدس
ثم ينصره . ثم معاذ الله ان نغلب على النصر ، ثم معاذ الله ان نغلب على الصبر .
واذا كان ما يقدم الله اليه الماليك قبل المولى لا بد منه وهو لقا الله سبحانه ،
فلا نلقاه والحجة لنا ، خير من ان نلقاه والحجة علينا ، فلا تعظم هذه الفتوق
على مولانا فتبهر صبره وتعلل صدره ، فلا تهونوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون
والله معكم . وهذا على دين ما غلب بكثرة ، ولا نصر بشرة ، انما اختار الله تعالى
له أرباب نيات وذوى قلوب معه وحالات ، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف .

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة (واشتد ازمة تنفرجي) والخمرات تذهب
ثم لا تجي ، والله تعالى يسمع الاذن ما يسر القلب ، ويصرف عن الاسلام وأهله
فاشية هذا الكرب ونستغفر الله العظيم فانه ما ابتلى الا بذنب . (١)

طال حصار عكا وكاد السلطان بيأس ويتجه الى التزهد فأرسل
الى وزيره القاضي الفاضل مخبرا بما كان يجول في خاطره ، فحاول ان يثنيه عن
عزمه وأرسل قائلا " وقفة قدام قلعة قد امتنعت بأمة قد اجتمعت بقبالة احد "
قد ارتفعت ، واستقرالا لهم رافعين ، وطلع أهل الاسلام اليها هاجمين خير من
الف سنة رباط في الكعبة . (٢) وكتب له في مناسبة أخرى " فالشدة تذهب
ويبقى ذكرها ، والازمة تنفرج ويبقى اجرها ، وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا
فلا تحدث له ساعات الامتحان ضجرا . والعظيمة والملوك يستحسن بيبي حاتم
ومولانا ابقاء الله وخلص سلطانه يحفظهما .

شرينا بكأس الفقر يوما وبالغنى وما منهما الا سقانا به الدهر
فما زادنا بغيا على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر . (٣)

(١) ابوشامة : ١٦٦ ، ٢ - ١٦٧

(٢) الفاضل من كلام الفاضل

(٣) ابوشامة : ١٦٨ ، ٢

وعندما اشتد أمر الفرنج على المسلمين في مرج عكا ، أرسل إلى
العماد قائلًا " وعرفت ما جرى على قضيتك فسيحت الله تعالى فإن من عجائب
قدرته سلامة سيدنا على ضعف حركته . والأمركان عظمها والمدنوع أعظم والسلامة
كانت غريبة إلا أن نقول ولكن الله سلم والسلطان أعزه الله إذا سلم فكل الناس
قد سلموا ، وإذا وجد وقد عدم الناس كلهم فقد وجدوا وما عدموا ، وكل جوهر بالاضافة
إليه عرض وهو جوهر بالحقيقة من عنه من كل جوهر عرض " (١) كما توصل به
إخلاصه للبلاد واستعانت به في الدفاع عنها أن ثنى السلطان عن الذهاب إلى مكة
للقيام بفريضة الحج قائلًا " أن الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ، ولا سلوا عن القدس ،
ولا وثق بعهدهم في الصلح فلا يؤمن مع بقا الفرنج على حالهم ، واقتراق عسكرنا ،
وسفر سلاطيننا سفرًا مقدرا معلوما مداه الغيبة فيه أن يسروا ليلة فيصبحوا القدس على
غفلة ، فيدخلوا إليه والعياف بالله . ويفرط من يد الاسلام ، ويصير الحج كبيرة من
الكبائر التي لا تغفر ، ومن العشرات التي لا تقال " (٢)

أثر القاضي الفاضل بقلمه ولسانه كثيرا على صلاح الدين الذي حفظ
له جميله واعترف بفضلته عندما قال " ما فتحت البلاد بالعساكر ، إنما فتحتها بقلم
القاضي الفاضل " (٣) وكان في الوقت ذاته يرمي حقوق القاضي الفاضل ويهتم
بأمره ، يجعله ، ويكره الابتعاد عنه حتى أنه كتب إلى أحد نوابه عندما طلب منه القاضي الفاضل

(١) المصدر السابق : ٢١ ، ١٤٧

(٢) المصدر نفسه : ٢١٥

(٣) الحنبلي : ٣٢٧ ، ٤٠٤ ، سبط ابن الجوزي : ٨ ، ٣٠٤

اذنا للحج قوله " وصلني كتاب القاضي الفاضل ، وهو يذكر انه مصمم على الحج ،
الله يجعله مباركا مبهورا ، ولكن لا أنسخ له الا بعد سنتين ، واحدة انه لا
يركب بحرا يسير من العسكر الى أيلة ، ومنه يتوجه ويقوم العسكر على أيلة ليلة
وعلى ام ليلة ودون ام ليلة وقاطع ام ليلة ، فيكون هو قد بعد وما يبقى عليه خوف
ان شاء الله تعالى . وتانيه ، تأخذ بيده وتحلفه برأسي انه لا يجاور ، وثالثة
تعطيه من مال الجوالي ثلاثة الف دينار ، وتقول له لا بد ان تخرج هذا عني لا عنك
بمكة والمدينة وفي اهلها ، هذا أمر لا بد منه ، فان الناس لا بد لهم في الطلب ولا
بد لك من العطاء ، وان قال ان الشيء قليل فانت تقرضني مثل هذا المبلغ من مالك
وتعطيه اياه فلا بد ، والا فلا اذن له في الرواح الى الحج الا على هذه الشروط التي
قد اشترطتها ، واما مجيئه فيجيء الى الشام ، فانا ما بقي لنا دار الا هي حتى يفضي
الله بيننا وبين الفرنج وهو خير الحاكمين . (١)

بقي القاضي الفاضل ملازما لصلاح الدين حتى قضى السلطان نجه ،
فتولى نفسه وكلاءه وكنهه من ماله ودفن معه سيفه قائلا " هذا يتروكا عليه الى الجلاء " . (٢)
ثم انتقل الى مصر ليبكيه بدموع حارة منتظرا ومتنيا موعد التفائه به في الآخرة .

(١) ابوشامة : ٢ ، ٨٧

(٢) المصدر نفسه ٢ ، ٢١٥

المرحلة الثالثة من حياة القاضي الفاضل

" ٥٨٩ هـ - ٥٩٦ هـ " (١١٩٣ - ١١٩٩ م)

ظل القاضي الفاضل محافظاً على مكانته المعنوية في البلاد بعد وفاة صلاح الدين ، فاهتم العزيز عثمان ملك مصر بأمره وأكرمه ، واتخذ منه ناصحاً ومشيراً . (١)
ألا أن القاضي الفاضل لم يظهر تهافتاً واندفاعاً على التدخل في أمور الدولة ، فقد آثر الانطواء ، والانعزال عن العالم السياسي وتكريس السنوات الباقية من حياته لدرسته الفاضلية . ولا شك أن اعتزاله السياسة في هذه الفترة يعود إلى أسباب عدة :

١- ذلك أنه فقد بموت صلاح الدين الرجل الذي وضع فيه كل آماله وتوصل في عهده إلى مركز عال لم يكن يحلم بالوصول إليه في عهد غيره ، وكرس لسه قسطاً كبيراً من حياته في نصحه وإرشاده ، ووجهه كل ما في وسعه من محبة وإخلاص ، حتى أصبح لا يطيق الابتعاد عنه في حياته ، فكيف بعد موته ، وافتقاده لصلاح الدين وبأسه من الحياة بعد موته ظاهراً في عدد من رسائله التي كان يذكر فيها انتظاره لأيام اللقاء بصلاح الدين في الآخرة " احتجت إلى من يؤدبني لرئيسي ، ويضربني على قلبي ، ويعرئني أن ميني رحمه الله ما ذهب لأبقى ، ولا ذكر لأنسى ،

(١) المقريزي ٢ : ٢٨٣

وان أهلي الذين ضلوا سلفا فسد السبيل ، وفرطا . . . التأميل أنا وراهم بالدثر ،
ووارد ما وردوا على الصغر ان شاء الله الأعلى الكدر ، وان لقاءهم أنس تمرن به
المنية ، وراحة قد كادت تكون من الأمنية ، فاني فقدت منهم ومن السلطان من
يستحي من الحياة من بعده ، ومن يسترحش من الأحياء لفقد . (١) ولم يترك
مناسبة تمردون ذكر صلاح الدين ، فقد كان إذا رأى معارف تذكره وإذا رأس الناس
من حوله وردت صورته لخاطره ، فيزداد ياسا وقنوطا ، ذكر للعماد في إحدى رسائله
قوله " ولسلوة الايام هو موعد الحشر ، وان ليلة لقاءه هي ليلة القدر ، ولقد حيي
وطابت الحياة ، وتوفاه الله نطابت الوفاة ، وان امرا يحسن به الضدان وهما ما هما ،
ومولى يطيب به الطوران والحياة بالطيب اولاهما ، لمعدورة فيه القلوب اذا خضعت
تحت وطأة الخفقان ، والجفون اذا أمرت عليها مؤرة الحملان . " (٢)

٢- لم يعد الحرك السياسي للدولة بعد وفاة صاحبه ، فقد

تقسمت الدولة ، وتقسى العمل السدى كان يقوم به زمن صلاح الدين بين اشخاص
عديدين من بينهم اشخاص لم يكن راضيا عن تصرفاتهم زمن تنفذه كصفي الدين ابن
شكر (٣) الذي كان يقول عنه " وأما ابن شكر فهو الذي لا يشكر ، واذا ذكرت
الاشياء فانه الشيء الذي لا يذكر . " (٤) وضايا الدين ابن الاثير (٥)

(١) الفاضل من كلام الفاضل

(٢) المصدر نفسه ٨٢

(٣) صفي الدين ابن شكر ، وزير للملك المعادل ابي بكر ، ثم غضب عليه وهزه سنة ٦٠٩ هـ .
توفي عام ٦٢٨ هـ . " الفهرست " ٢١ ، ٤٣٢ - ٤٣٣ .

(٤) الفاضل من كلام الفاضل

(٥) ابو الفتح نصر الله ، من اهالي جزيرة ابن عمر ، اقام في الموصل مدة ثم اتصل بصلاح
الدين واقام عنده ، ثم اقام عند ابنه الافضل . توفي عام ٦٣٧ . طاش كبرى زاد ، ١١ ص ٢٧٩

الذى حاول ان يبعد الأنفل حاكم دمشق عن اصحاب أبيه * (١) فصعب عليه ان تخفض مرتبته بعد علوها وآثر الابتعاد عن الجوالذى جرد فيه من نفوذه وسلطانه ، فراح يتحسر على مكانته السابقة بقوله " وقد تبرمت بالحياة ، وبعد ان كنت ممن اخذته بمكان العيين صرت بمكان القذاة ، والأعصار اكثرها الاكدار الا ان اشدها مؤنة ما كان في اواخر المدد حيث يكون المرء في اواخر الجلد * (٢) ونفوله " وننتج من الدهر بعد فقد من كتابه عليه نستطيل ويده من صروفه نستديل ، بهذا العيش المرقع ، الذى هو كالظفر المرقع ، فان المسافة بيننا وبينه لا يطول ارتحال الأنفاس في قطعها بل لقاءه اقرب اليانا من رجوعها * (٣) وكان في بدء هذه الفترة يحاول ان يشير على ابنه صلاح الدين ، الا انه لما ليث ان " تنزه عن ملابسة الدولة ومخالطة اهلها * لما رأى من اختلال الأحوال (٤)

٣- تبدد بوفاء صلاح الدين حلم كبير كرس القاضي الفاضل له فسط كبيراً من حياته ، فقد تقسمت البلاد التي طالما سعى الى توحيدها وتقويتها بين ابنه صلاح الدين الذين راحوا يتنافسون عليها ويتساجرون متدعمين بأنانيتهم ومغفلين أمر العدو الرابض على حدودهم ، وهو الفرنج . ولم يدرك أخطار قسمة المملكة بين ابنه صلاح الدين الا بعد ان حدثت فأخذ يدعو للتحالف والتآزر ويحاول التقريب بين الأخوة ، ولم يترك مناسبة تمر دون ان يذكرهم بضرورة توحيد الصف ،

(١) ابوشامة : ٢ ، ٢٢٨

(٢) الفاضل من كلام الفاضل

(٣) ابوالفدا : ٣ ، ٨١

وفي المغرزي : السيرة : ١ ، ١٤٧

فكتب للملك الظاهر ابن صلاح الدين ضمن رسالة عزاء فيها بوالده قوله " وأما
لائح الأمر فانه ان وقع اتفاق لما عدتم الا شخصه الكريم ، وان كان غير ذلك فالمصائب
المستقبله أهونها موته وهو الهول العظيم " . (١) كما كتب الى احدهم بقوله
" والبيت الكريم انا في ولائه وخدمته كما قبل " .

ان قلبي لكم لكالكبد الحرى وقلبي لغيركم كالقلوب

يسرني ان يمد الله ظلهم ، وان يجمع شملهم ، كما يسوئني ان تختلف آراءهم ولا تنتظم
أهواهم " . (٢) ولعب دورا في الصلح بين العزيز عثمان ملك مصر ، والأفضل ملك
الشام ، ذلك ان العزيز قصد الشام لاحتلالها ، الا انه اضطر ان يعود الى مصر بعد
وصوله الى ابواب الشام بسبب اضطراب بعض العسكر الأسيدي عليه ، فتبعه الأفضل
والعادل ، أخى صلاح الدين الى بلبيس ، والأفضل مصر على دخول القاهرة .
فأرسل العادل الى القاضي الفاضل ليصلح بين الأخوين وكان قد اعتزل عن التدخل
في أمورهم لما رأى من فساد أحوالهم . فسار الى الملك العادل واجتمع به
وأصلحا بين الأخوين " . (٣) ثم اعتزل التدخل في أمورهم نهائيا ، حتى انه عندما
اختلف الأمراء الصلاحية والأسيدي بخصوص اتابكية بيا الدين قراقوش " عام ٥٩٥ هـ .
على الملك المنصور ناصر الدين ابن العزيز بعد وفاة والده ، فصدرا القاضي الفاضل

(١) ابن خلكان : ٦ ، ٢٠٤

(٢) النويرى : ٨ ، ٨

(٣) ابوالفدا : ٣٠ ، ٩١

ليأخذوا رأيه فامتنع عن المشورة عليهم ، فتركوه (١) وشاهد في هذه الفترة الفرنج
يغيرون على البلاد محاولين استرجاع اقسام منها ، فازداد خوفا من مجيئ تبديد ما
قضى حياته في بناءه مع صديقه صلاح الدين ، وهو استعادة البلاد من أيدي الصليبيين ،
ولم يجد القوة التي وجدها زمن صلاح الدين والتي تمكنه من التغلب على الفرنج ،
ورأى بعض المدن تقع ثانية في أيدي الفرنج فراح يشد من أزر العادل ابي بكر ،
أخي صلاح الدين عليه يقف وثقات قوية كأخيه فكتب له في إحدى الرسائل * وما تجد
من وصول العدو اللعين الى جانب بيروت وخطرها وخطر البلاد ما أذهل كل
مرضة وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعة ، وللإسلام اليوم قدم وان زلت زل
وهمة وان ملت فان النصر منه مل . وتلك القدم القدم العادلة ، وتلك الهمة
الهمة المسابقة السيئة فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد ودفوا ذلك المهادر ،
واسهروا في الله ، فليست ببليلة رقاد ، ولا ينظرني حديث زيد ولا عمرو ، ولا
ان فلانا نفع ولا ضر ، ولا ان من الجماعة من جاء ولا ان فيهم من مر ~~الملك~~ انظروا
الى انكم الاسلام كله قد برز الى الشرك كله ، وانكم ظل الله ، فان صممتم تلك النسبة فان
الله لا ناسخ لظله . واصبروا ان الله مع الصابرين ولا تموتوا ، وان ذهب الناصر
فان الله خير الناصرين . فما هي الا غمرة وتنجلي ، وهيمة وتنقضي ، ولبلة وتصبح ،
وتجارة وترجع . (٢) لكنه شاهد بعض المدن تسقط ثانية في أيدي الفرنج ،
فراح يتحسر على فرط العقد الذي جمعه مع صلاح الدين ، ويزيد ياسا وانعزالا .

(١) المقرئى ، السلوك : ١ و ١٤٦

(٢) ابوشامة : ٢ و ٢٣٢ و ٢٣٣

٤- كان للأمراض التي تراكمت على القاضي الفاضل أثر في ابتعاده

عن الجوالسياسي ، فقد كان ضعيف البنية كثير المرض ، وما كان يؤخره عن الاشتراك في بعض الغزوات عندما كان صلاح الدين حيا ، وفي رسائله كثير من الإشارة الى مرضه وضعفه اللذين ازدادا بعد وفاة صلاح الدين . ذكرني احداها لصديقه العماد الاصبهاني قوله " سيدنا يعلم كيف حال الكبير اذا فقد الصغير ، والضعيف المتناقل اذا نودي للنفسير ، ما كاني عرفت الايام الا في هذه الايام ، ولا كان الدنيا ليستها الا على ان لا يخلعني الى الحمام . فقد توقعت امر الله ان يطرفني بيانا وانفدا وأنا نائم ، ارضحى وأنا هائم (وأحدث) في ضم رجلي واستوحشتني الشخص من ظلي ، وما اخلو في كتب سيدنا من فائدة وعائدة ، وموعظة وموعظة " . (١)

كما كتب اليه في احدى رسائله يصف حاله الجسمانية قائلا :
" وأصدرت هذه الخدمة ورجلاى قد عاد النقرس الى تفيدها وتصغيرها بالاضقة وتسويدهما ، وجنبي طريح ، وما في صحيح الا سقمي فانه صحيح ، واذا خلوت الى شيطان المرض أصبح " . (٢) وكتب له في أخرى قائلا " وأما احوالي في جسمي فلا تسأل عن تداعي البنية ، الفاصل مذهبة ، والأشنان مضدة ، والنقرس يغلي ، وزيادة كالتقص زيادة العصا في ظلي " . (٣) ووصف اوجاعه في آخر حياته للعماد بقوله :

(١) الفاضل من كلام الفاضل .

(٢) المصدر نفسه غير مرقم .

(٣) المصدر نفسه .

• وأخلاق الغلمان وما ادراك ما هيه ، نار حامية ، وقد صرت أرى الصبر على
الضرورة أولى من الابتلاء بهم في الخدمة ، فأجوع ولا أقول اطعموني ، واطمأ ولا
أقول اسقوني ، وألقيت بيدي وقتلت مروا ، ومددت رجلي وقتلت جروا • (١)

و^{قد} توفي القاضي الفاضل في السادس من ربيع ^{ال}الأول عام خسلثة
وست وتسعين (٢) . قال العماد الاصفهاني في هذه السنة • تمت الزينة الكبرى
والبلية العظمى وفجيعه أهل الفضل بالدين والدنيا ، وذلك بانتقال القاضي الفاضل
من دار الفناء الى دار البقاء في داره بالقاهرة • وذكر في وفاته انه صلى ليلته
العشاء في مدرسته وجلس مع الفقيه ابن سلامه مدرسا وتحدث معه ما شاء
وشوهد من كل ليلة أبش وأبسم وأهش ، وقد طالبت المحاضرة وطالبت المسامرة
وانفصل الى منزله صحيح البدن فصيح اللسان ، وقال لغلامه ، رتب حوائج الحمام
وعرفني حين أقضي مني المنام فوائده سحر اللاعلام لما اكثرت بصوت الغلام
ولم يدر ان كلم الحمام حصى من الكلام وان وثوقه بطهارته من الكثر افناء عن الحمام ،
فبادر اليه ولده فألفاه وهو ساكت باهت ، فعرف ان القدر له باغت قلبه يومه
لا يسمع له الا انين خفي علم منه انه بعهد الله وفي ثم قضى سعيدا • (٣)

وذكر ان القاضي الفاضل لما سمع ان العادل أخذ الديار المصرية
دعا على نفسه بالموت خشية ان يستدعيه وزيرها صفى الدين ابن شكر او يجرى في حقه
اهانة ، وكانت بينهما عداوة • فأصبح ميتا • وقيل ان العادل لما دخل القاهرة زار قبره • (٤)

(١) المصدر المطبق نفسه

(٢) ابوشامة ج ٢ ، ٢٤١

(٣) المصدر نفسه ، ٣٤١

(٤) ابوشامة ج ٢ ، ٢٤٤

الكتاب الثاني

شخصية الفاضل الناضل

صورته الجسمانية

حفظت لنا المصادر بعض الروايات الهامة التي يمكن ان نتصور منها

شكل القاضي الفاضل عامة :

قال الأشعد بن ماتي : " كان القاضي الفاضل ذمم الخلقة ،

وكان له حدية ظاهرة خلف ظهره يسترها بالطيلسان حتى لا تظهر للناس " (١)

وكان ينشد في نفسه :

ما كان يكمل حرّاً ذا الحمام حتى أزداد قبة
فكانني فيه خسرو ف شرا ومن فوقني مكسبة (٢)

وروى موفق الدين البغدادي عنه عندما زاره في فلسطين قوله

" دخلنا على القاضي الفاضل فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويغطي

على اثنين ووجهه وشفاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في اخراج الكلام ، وكأنه

يكتب بجملة أعضائه ، وسألني القاضي الفاضل عن قوله سبحانه وتعالى حتى اذا

جاءها وفتحت لهم ابوابها قال لهم خزنتها ، اين جواب اذا ، وأين جواب لو اني

قوله تعالى ، ولو ان قرآنا سميت به الجبال ... ومن مسائل كثيرة ، ومع هذا فلا

يقطع الكتابة والاملاء " . (٣)

(١) ابن اياس : ١ ، ٧٥

(٢) الصندي ٢١ ، ٢٢٥

(٣) ابن ابي اعبيدة : ٢ ، ٢٠٥

وند أثر شكله في نفسه فكان اذا سلم عليه من لا يعرفه
آذاه واذا التفتاه انسان ولم يسلم عليه اعفاه * (١) ومن النكت اللطيفة عنه
قول ابن لماني " دخلت يوما على القاضي الفاضل فوجدت بين يديه اترجة كبيرة
مفرطة في الضخامة وهي من الاثرج الشامي . فلما جلست حدثت اليها واتفق
فكر وزهول فأخذ رحمه الله يتبادر على نفسه وقال يا مولاي الاسعد ما هذه
الفكرة الطويلة ، ما أنت مفكر الا في خلق هذه الاترجة وما فيها من التكيل والتعوج وتعجب
من المناسبة لها وكيف اتفق الجمع بيننا وبينها ، ندهشت وانخلع قلبي مني خوفا
ثم رجعت الي فقلت لا والله بل أفكرني معنى وقع لي فيها . ويسرأن نظمت :

للحسن بل لله اترجة قد اذكرتنا بجنان النعيم
كانها قد جمعت نفسها من هيئة الفاضل عبد الرحيم

فلما سمع ذلك أعجبه وزال ما عنده ما كان قد توهمه مني * (٢) قال الاسعد
بن ماتي : ثم اني ذكرت هذه الواقعة لبعض اصحابي فقال لي احمد الله ان
انشدته ذلك من لفظك ولم تكبهما له فرما تصفنت عليه في اللفظة فيقرؤها من
هيئة الفاضل عبد الرحيم فيزداد حنقا من ذلك * (٣)

(١) ابن اياس ١ ، ٧٥

(٢) الصمدى ٢ ، ٢٢٥ - ٢٢٦ ، ابن اياس ١ - ٧٥

(٣) ابن اياس ١ ، ٧٥

وقد كان شكله موضع تنذر بعض الظرفاء مثل ركن الدين الهراني (١) الذي كان يقتدر به دون ان يتمكن من التصريح باسمه لعلو مكانته ، فكتب الى احد اصدقائه ذاكرا حمام الفيوم بقوله " فلم اشعر الا والحائط الشمالي قد انشق ، وخرج منه شخص عجيب الصورة ليس له رأس ولا رقبة البتة ، وانما وجهه في صدره ولحيته في بطنه مثل بعض الناس " . (٢) يقصد القاضي الفاضل .

العناصر الهامة في شخصيته

امتاز القاضي الفاضل بشخصية قوية وذكا حاد مكّنه من التوصل الى مرتبة عالية في الدولة ، وقد اجتمعت اليه خلال كلفت له النجاح في الحياة السياسية في العصر الصلاحي ، منها لبقافته ، وتصرفه باتزان وحكمة مكنته من تخليص السلطان من عدة مأزق ، ذكر من بينها ان الحمل تأخرت مدة على صلاح الدين في الشام فطلب من كاتيه العماد الاصفهاني ان يكتب الى اخيه العادل يستحثه على انفاذها حتى قال : يسير لنا الحمل من مالنا او من ماله . فلما وصل اليه ، ووقف على هذا الفصل شئ عليه ، وكتب الى القاضي الفاضل يشكو من السلطان من اجل ذلك ، فكتب اليه القاضي الفاضل جوابه ، وفي جملة ، وأما ما ذكره المولى من قوله : " يسير لنا الحمل من مالنا او من ماله فتلك لفظة ما المقصود فيها

(١) احد شعراء العصر ، قدم من المغرب وعاش في مصر " الصفي ٣٨٦ هـ - ٣٨٧ هـ "

(٢) المصدر نفسه ٣٨٦ هـ - ٣٨٧ هـ

من الملك النجعة ، وإنما المقصود من الكاتب السجعة . وكم من لفظة نظة ، وكلمة
فيها غلظة صيرت عبي الأقلام فسدت خلل الكلام ، وعلى الملوك الضمان في
هذه النكتة ، وقد فات لسان القلم منها أي سكتة . (١)

وفي عام ٥٨٤ هـ ثار اثنا عشر رجلا في القاهرة ونادوا يا آل علي ،
يا آل علي ، ولكن محاولتهم فشلت^{أهنت} ، وكرب السلطان بذلك وهو محاصر عند ،
وكان على بابة جمعة من ونود المصريين فاعم فاهمه الأمر وأزعجه وتبرم بمن
على بابة منهم ودخل عليه القاضي الفاضل فأخبره بذلك ، فقال يجب عليك
ان تشكر الله على هذه النعمة ، فقد عرفت بهذا الأمر طاعة رعيتك ، أليس لم يلب
دعوتهم احد وأنه لم يكن لهم من يمد لهم ، فطب بذلك نفسا وتحقق زيادة منزلتك عند
الله تعالى ، فقال له السلطان ، كان الملوك قبلي تخانهم الرعية وتهرب منهم ،
وتنوقع سطوتهم ، ورعيتنا قد تكاثروا علينا واضجرونا وملونا ، وإذا ركبنا تعاورونا بالنقص .
فقال له القاضي الفاضل ، أنت اولى الناس بشكر هذه النعمة ، كان بمصر بالأمس صاحب
القصر وأشيائه ، وخدمه واتباعه ، وامراءه وخواصه ، وما منهم احد الا ويرتع الخلق في
رياض انعامه ، وكان بالشام والبلاد الشرقية في كل بلد رال وعاحب ، له على اهله
نعم ، وفي كل قطر ملك يلون اهل ذلك القطر به ، وبذا أصبحت اليوم سلطان الجميع ،
وقد رد الله سبحانه آمال الملوك الكل اليك ، وجمع المتفرقين على بابك . فلا يجدون
لهم يعد الله - الا وجودك وكرمك . فأغرورت عينا السلطان بالدموع وشكر الله
على احسانه اليه وآلى الا يرد قاصدا ، ولا يخيب واندا . (٢)

(١) ابن تغريبردي : ١٦١ - ١٦٢

(٢) ابن راصل : ٢٧٧ ، ٢

وكان واسطه الناس لدى السلطان يتشفع دائما بهم لديه ويطالبه
بالاهتمام بأمرهم وساعدتهم واعطائهم حقوقهم ، ويحذره من مغبة الاختلال بأمرهم .
ذكر في إحدى رسائله إلى العماد قوله " بلغني انه استدعي بعمل أوراق برواتب
الناس التي يأخذها الفقير مغرونا والغني تشريفا ، فذروا الناس يرزق الله
بعضهم من بعض ودعوا لهم ما استكدي وخذوا ما (استفيض) واعطوهم من
قليل ما عندكم يعطكم الله من كثير ما عنده . واعلموا ان العطايا تجارة مريحة ،
واني لا ألقى فأتاجر الله بالصدقة . وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لعائشة لا توهي فيوهي
الله عليك ، وطالما خذل الملوك الأولون بالشج ونصر سلطاننا بالكرم " وطالما أعطى
دينارا فأعطاه الله فمظارا ، ومنح فدنا ففتح الله علينا مدنا فغاله الله في هذا
الذكر ، وأما يا كاتب من طريق الفكر ، وأرحمه بضاكبات المهمات التي تحطمه ،
واكبده بيرة اللسان التي تخطمه ، واطوه كما طويت صحف إبراهيم وموسى . (١)

وكل ذلك أكسبه المحبة وكثر عارفي فضله والمتحرمين بحماه . وزاده
امعانا في هذه الناحية انه فلما كان يسمح للبلغضا الفردية بأن توجه احكامه على
الناس او تسيطر على علاقاته بهم ، ونصته مع القاضي كمال الدين الشهرزوري توضح
ذلك ، فقد كان القاضي كمال الدين " متحكما زمن نور الدين ، ولما تملك صلاح
الدين كتبت قصص كثيرة فيه ونسب إلى أمور . وفيه ان القاضي الفاضل كان يكره
كمال الدين فأدى القصاص إلى السلطان في كمال الدين في اثنا الطريق فلم يصل السلطان
إلى الكسرة الا وقد حصل عنده من كمال الدين شيء مع ما قيل انه كان لا يجمع بين أيام نور الدين .

(١) الفاضل من كلام الفاضل

فاجتمع اصحاب كمال الدين وأشاروا عليه بالخروج لتلقي السلطان فأبى جريا على ما ألفه في أيام نور الدين من تردد الناس اليه وعدم تردده الى الناس . فلما كان ليلة دخول السلطان دمشق تحزب اصحاب كمال الدين عليه وقالوا ، هذا السلطان من الأصل لا يحبك ومدبر دولته القاضي الفاضل كذلك ، ولعداؤوك قد تحزبوا عليك ، وما كنت تعرفه من الرفعة قد زال بزوال دولة نور الدين والسلطان بكثرة قد يدخل البلد ، وقد دخل القاضي الفاضل البلد الليلة ونرى ان تمضي اليه ، فأظهر تألما كثيرا لذلك فأنزله وربما حلف عليه فمضى ومعه اثنان احدهما ولده والاخر بعض من اشار عليه ، وفي ذهنه انه من حين يقبل على دار الفاضل يخرج لتلقيه فقامد على الباب زمانا طويلا ليؤذن له ، فأما الرجل الذي كان معه وأشار عليه فانه حرب حيا من القاضي كمال الدين ، وصار كمال الدين ولده فخرج الطواشي وذكر ان الفاضل نائم فقام كمال الدين وحده الى داره في اسوأ حال . وسرى القاضي الفاضل في اثناء الليل لتلقي صلاح الدين وجاراه الكلام حتى انتهى الى ذكر كمال الدين فقال ، يا خوند هذا رجل معظم في العلم والسؤدد ، وافعال نور الدين عند الناس عند مسددة وكان منها تعظيم هذا الرجل ، وقال ما ينسب اليه كذب ، وأما ما ذكر من كثرة دخله فهو وان كثر دون كثير من امراء المملكة ولعله أحق ببيت المال وأمواله من كثير منهم ، فالذى اراه تعظيمه وكذا وكذا ، وحده الى البلد مصباحا قبل دخول صلاح الدين وتوجه الى دار كمال الدين فجلس على الباب وطلب الاذن ، فلما دخل الخادم ليستأذن كمال الدين عليه مضى ولم يلبث علما منه بأن كمال الدين سيجازيه على عدم خروجه له ولا

يخرج لقوة نفس كمال الدين ، فكان كذلك ، دخل الخادم الى كتاب الدين
فاعتل لعله ولم يخرج فخرج الخادم فلم يجد الفاضل ثم لما عبر السلطان
البلد وبدأ بالجامع فصلى فيه فعيل ان الفاضل أخذه من الجامع وجاء به الى دار
كمال الدين وصارت له اليد البيضاء عند كمال الدين بهذه الواقعة وتصادفنا . (١)

ومع ما كان لديه من رفق في الشؤون العامة ومن تسامح في الهنات
فقد كان ذا هنية بالغة في النفوس ، حتى كانت هيئته هذه مشهورة معروفة ، وحتى
ان اصدقاءه اقرب الناس اليه ، لم يكونوا يجزؤون ان يعيدوا عليه السؤال اذا
رأوا منه اعراضا ، (٢) وروى ان العزيز عثمان حاكم مصر ، أعيب بضائفة مالية
فألح عليه اصحابه في الاقتراض من القاضي الفاضل ، فاستدعاه الى مجلسه ، بمنظرة
من دار الوزارة مشرفة على الطريق ، ولما عاين القاضي الفاضل استحيا منه ، ورضى الى
دار الحرم احتراماً له من مخاطبته في القرض ، ولم يزل الاثراً به حتى أخرجوه من
دار الحرم . (٣) وقد ذكر الشعراء هذه الهنية ، فقال ابن سناء الملك :

(١) السبكي : ٤ ، ٢٦٠

(٢) ابن سناء الملك : ٢٢٩ - ٢٣٠

(٣) المقرئى - السلوك ١٤ ، ١٢٨

أخذت بجلسه المباشرة عنها فنرى البرى لديه مثل الجاني (١)

ورافقت هذه الهبة فيه خلتان بارزتان : حدة تعثره أحيانا

فتصرفه عن التساهل حين يكون التساهل ضارا * ونصته مع أخيه - وهي التهجرت
في صفحات سابقة فصور هذه الصلابة الحادة * . وسيل الى الجدد يخيّل الى الناس
انه لا يعرف معه معنى المزاح والدعابة . ومن امارات حدته هذه الرسالة التي كتبها
للسلطان في وفاة عضد الدين بن رئيس الرواس* وزير الخليفة ببغداد * . وما ربه
بظلام للعبيد ، فقد كان عنا الله عنه قتل ولدى الوزير بن هبيرة وأزهق انفسهما
وجماعة لا تحصى .

من ذا يسر بذنبه والدهر لا يغتر به

وهذا البيت ، بيت ابن المسلمة عريق في القتل وجده هو المقتول
بيد البساسيري في وقت اخراج الخليفة القائم في أيام الملقب بالسكنجبين بمصر ،
فهو من ذرية لم تزل قاتلة مقتولة ، وما زالت السيوف عليها ومنها مسلولة ، فهم
في هذه الحادثة السمعة المصمة كما قال ابن دريد (ابن الموت الا الصم)
والأبيات المولى يحفظها وهي في الحماسة وقد ختمت له المعادة بما ختمت به له
الشهادة لا سيما وهو خارج من بيته الى بيت الله . قال الله سبحانه ، ومن يخرج
من بيته مهاجرا الى اله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله .

(١) ابن سناء الملك ، ٧٧٩

ان المسألة قد تسروريما كان السرور بما كرهت جديرا
ان الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشناك كان وزيرا

وهذان البيتان قيتا في أبي سلمة الخلال أول وزير لبني العباس .
وقال الفاضل في ذلك من نظمه .

وأحسن من نيل الوزارة للفتى حياة تربه مصرع الوزراء (١)

وأما جده فقد كان ينادى به أحيانا عن مجالس الهزل والنزويج
عن النفس ، وخصوصا اذا اقترن هذا الجد لديه بمعاني التقوى والدين . ذكر
" ان صلاح الدين أخرج له من القصر من يعاني خيال الظل ليفرجه فقام القاضي
الفاضل ، فقال له صلاح الدين ، ان كان حراما فما يحضره ، وكان حديث العهد
بخدمته قبل ان يلي السلطنة فما آثر انه يتكدر عليه فبعد الى آخره . فلما
انقضى ذلك قل له السلطان ، كيف رأيت ذلك ، فقال ، موعظة عظيمة ، رأيت
دولا تضي ما كأنها كانت ودولا تأتي ، ولما طوى الازار طوى السجل للكتاب
اذا بالمحرك واحد ، فأخرج هذا الجد في هذا الهزل " . (٢)

(١) ابوشامة : ١ ، ٢٧٨

(٢) الغزولي : ١ ، ٧٨ - ٧٩

ولعل تدينه كان اكبر الامور الموجهة لأعماله واكثر العناصر بروزاً في شخصيته ، ويمثل هذا التدين لديه في الاغصاء والصلح والحلم والستر وقراءة الأوراد ومداومة الصلاة والصيام وكثرة الصدقات والوقوف الكثير على وجوه الخير ومساعدة الغرباء ووقف بعض امواله لتلك اسارى المسلمين ، (١) والاكتار من الحج ، (٢) وبناء القيساريات كقيسارية الفاضل والمدرسة الفضلية ، (٣) وكان متشفها لا يبلغ جميع ما عليه دينارين ، كارها لمظاهر السيادة ، فلا يرافقه في روحاته وخدماته سوى غلام وركابي ، (٤) هذا على انه كان قادراً ان ينتحل أبهة الغنى ومظهر النعمة والترف ، فقد كان له دخل كبير قدره السبكي بخمسين ألف مثقال من الذهب ، وكان قد استغل ثروته في ضروب التجارات ، (٥) هذا عدا عن ضيعة اهداها له السلطان تسمى ترنجه كانت تغل اثني عشر ألف دينار في السنة . (٦) وكان له بستان عظيم فيما بين ميدان اللوق وبستان الخشب في القاهرة ، وكان يمد مصر من ثماره واعطبه ، ولم تنزل الباعة في عهد المقرئى ينادون على العنب يقولهم : " رحم الله الفاضل يا عنب " . (٧) ولكنه على تفشفه في حياته الذاتية لم يكن يرضن بالمال على المنشآت العامة والمساجد والمدارس .

(١) السبكي : ٢٥٣ ، ٤ ، سبط ابن الجوزى : ٨ ، ٣٠٥

(٢) ابن الاثير : ١٢ ، ٦٧

(٣) المقرئى : ٣ ، ١٤٥

(٤) السبكي : ٢٥٣ ، ٤

(٥) المصدر السابق : ٢٥٣ - ٢٥٤

(٦) الحنبلي : ٤ ، ٣٢٥

(٧) المقرئى : ٤ ، ٨٩

وكان له تهجد بالليل لا يخل به مع اكثاره من تشييع الجنائزات
وعيادة المرضى ، وعادة في زيارة القبور لا يقطعها ، (١) حكى عنه * انه دخل يوما
لزيارة الشافعي فوجد الفقيه الجفوشاني يلقي الدرس على كرسي ضيق ، فجلس
على طرفه وجنبه الى القبر فصاح الشيخ فيه قم قم ، ظهرك الى الامام فقال
الفاضل ، ان كنت مستدبره بقلبي ، فأنا مستقبله بقلبي فصاح فيه أخرى وقال
ما تعبدنا بهذا فخرج وهو لا يعقل * ، (٢) والحكاية تدل على اهتمامه
بزيارته قبور الأئمة والملاحين كما تدل على كبحه لغضبه اذا بلغ الغضب به حدا بعيدا .

وكان متعففا في حياته الخاصة ينفر من الرذيلة كشرب الخمر
والانهماك في الملذات ، ويبني علاقاته بأصدقائه على أساس من هذا الفهم ، قال له
صلاح الدين يوما ، لنا مدة لم نرفيها العمام فلعله ضعيف ، اض الى داره ،
وتفقد احواله ، فلما دخل دار العمام وجد اثيا انكرها في نفسه ، فقد أتى مجلس
شرب وطيب ووجد ورائحة خمر وآلات طرب فأثسده ،

ما ناصحتك خبايا الود من رجل ما لم ينلك بمكروه من العذل
محبتني فيك تأبى ان تسامحني بأن اراك على شيء من الزلل (٣)

(١) السبكي ٤ : ٢٥٣

(٢) المصدر نفسه ٤ : ٢٥٣

(٣) المصنف ١ : ٩٤٤

لقد فرضت عليه حياته السياسية الغاية هذا الضرب من الجد
الكثير ، واقفون فيه الجد بالتدين ، ذلك هو الطابع العام لشخصية رجل
كالقاضي الفاضل مسؤول يحسن بمسؤوليته احساسا دقيقا ، فالحزم من لوازمه
الضرورية ، وبحسب الرجل ان يكون في مثل موقفه ، أى ~~في~~ سياسيا مقصودا مدحا
ينظر الناس اليه ويعدون عليه حركاته وسكناته ، ويتوقعون منه الجود والعون ، بحسبه
ذلك — ان كان صالح الأهداف — حتى يكون في احواله العامة مستقيما — الى
حد يبلغ ^{التميز} التميز أحيانا — في التدقيق والتوفيق والحذر . ومع ذلك كله لم يكن
القاضي الفاضل يبعدا عن تلوذ عارفيه ، فان اخلاصه كان يتجلى في اعماله ،
وكان محبا لمساعدة قاصديه حافظا لمعهد اصدقائه فيلبي حاجة المحتاجين ،
ويشجع صاحبه على النظر في مظالم المتظلمين ، وهو غير مغلق النفس تماما عن
الظرف الذي يحرق آثار التشدد من النفوس ، ويعتمد ظرفه في الأكثر على سرعة
بديته وعلى لون من الدعاية الكلامية يتمثل باجاداته للتلاعب بالألفاظ . فقد
روى أن العزيز ، هو فينة شغلته عن مصالحه ، وبلغ ذلك والده ، فأمره بتركها
ومنعها من صحبتة ، فشق ذلك عليه ، وضايق صدره ، ولم يجسر ان يجتمع بها ،
فلما طال ذلك بينهما سمرت له مع بعض الخدم كرة عنبر ، فكسرها ، فوجد في
وسطها ~~زر~~ زر ذهب ، ففكر فيه ، ولم يعرف معناه ، واتفق حضور القاضي ، فعرفه
الصورة ، فعمل القاضي الفاضل في ذلك بيتين وأرسلهما اليه ، وهما :

اهدت لك العنبر في وسطه زر من التبر دفيق اللحام
قال في العنبر معناهما زر هكذا مستترا في الظلام (١)

وروي عن ابن سناء الملك قوله " خرجنا للقيا القاضي الفاضل
رحمه الله في بعض قدماته من الشام تلقيناه وعدنا . فلما كنا في سطح الخشي
عن طبي للموكب ، فركض خلفه المكين ابن حيون طامعا ان يلحقه ، وكان مثل هذا
الفعل لا يليق به لانه ليس من اهله ، والمصدر المتلقى لا ينبغي ان يغلط بين يدي
منه ، فعجب الفاضل منه ، واتفق ان فاته الصيد الذي طلبه ، وسقطت مفرعته من
يده ورجع الى الموكب وعليه انكسار الفوات وخجل الغلط ، فارتجل الاجل الفاضل :

يا عاريا عذر السفير ، عائدا عود الحليم
ضيعت مفرعة وعدت سميها من غير مهم (٢)

ويمكن القول في اجمال ان تدنيه كان منبعا لجوانب الخير فيه ،
وعاصما له عن التورط فيما ينفر الناس منه ، ومرسحا للتواضع الذي يزين نفس ذي
المركز العظيم . ولذلك لم يكن البون فيما يمدحه به الشعراء - بين حقيقة واقعة
وأخيلتهم - بعيدا ، وانما كانوا يتحدثون عن صفات حقيقية فيه ، دون حاجة الى
تخيل او تزويد ، فاذا سمعنا ابن سناء الملك يقول نفسه :

(١) البيهقي ، ١٠٦
(٢) الأزدى : ٢ ، ١٨٣

في الصوم والصلوات اتعب نفسه وضمان راحته على اتعابها
وتعجل الاقلاع عن آثامها ثقة بحسن مآلها وآبائها
نسواء تسبيه الملاح بحبها وسواء تصبيه الطلا بحبابها
صوامها قوامها علامها عاليا بذالها وهابها (١)

إذا سمعنا هذا أدركنا ان الصدق الاخلاقي في هذه الآيات وضع في موضعه ، وان الصفات التي ذكرها الشاعر كانت هنالك على التحقيق .

ولو وصلتنا معلومات عن حياته العائلية لاستطعنا ان نضيف عناصر أخرى الى شخصيته او نفوى الشواهد على العناصر التي اكدتها الأخبار والروايات . وكل ما نعرفه في هذه الناحية انه تزوج ورزق بنتين وبنت تعرف منهم ابنة له ، وابنا جرى على امرأته أبيه هو القاضي الأشرف بها* الدين ابو العباس احمد ، فكان كبير المنزلة عند الملوك مثابرا على سماع الحديث وتحصيل الكتب . اما عن شخصية القاضي الفاضل بين زوجه وأولاده فالأخبار لا تسعفنا عنها بشيء في هذه الناحية .

على اننا نعلم يقينا ان القاضي الفاضل قد خلق في بيته جوا أدبيا علميا ، لشدة شغفه بجمع الكتب ، فكان يرسل في احضار أى كتاب يسمع به مهما يبلغ ثمنه ، او كان يطلب ان ينسخ هذا الكتاب اذا لم يتمكن من شرائه ، كتب مرة الى العماد يقول

(١) ابن سناء الملك ، ٥٩ - ٦٠
(٢) ولد عام ٥٧٣ هـ في القاهرة - وتوفي عام ٦٤٣ هـ . "ابن خلكان ٢ : ٣٣٧" وسمع ~~بفتح~~ بانادة أبيه ونفسه الشيء الكثير وخرج على الشيخ وكتب الكثير . توفي بدمشق "الصفدى ٢ : ١٢٠" .
الزبي

" وسمعت انه ورد الى دمشق كتاب فيه رسائل الباخري ، فان امكن شراءه والا
 فليمكن نسخه " . (١) وتكون لنفسه مكتبة كبيرة بلغت مائة الف واربعه وعشرين الف
 كتاب قبل وفاته بعدة عشرين سنة ، وأخذ قسماً كبيراً منها من خزائن الفاطميين عندما
 استولى عليها صلاح الدين ، (٢) وقسم آخر من خزائن آمد عندما فتحها صلاح
 الدين ، (٣) وقد وصل به ولعه بالكتب ان اشترى مصحف عثمان بن عفان ، المكتوب
 بالخط الكوفي بنيف وثلاثين الف دينار ، وكان يحتفظ بنسخ ومجلدين لا يتوقفون عن
 العمل (٤) ومع اهتمامه الزائد بالعلوم الاسلامية وكتبها ، فانه لم يظهر اهتماماً بالعلوم
 الدخيلة . فقد عرضت عليه مجموعة كتب نفيسة خاصة بالطبيب الموفق ابن المطران
 ردها دون ان يأخذ منها شيئاً . (٥) ولعله كان لديه شيء من الاطلاع على العلوم
 الدخيلة الا انه حارب الفلسفة والمشتغلين فيها ، فقد كتب بيده رسالة عن صلاح الدين
 الى ابنه الظاهر في حلب يطلب منه فيها القضاء على شهاب الدين السهروردي ويقول
 فيها " ان هذا الشهاب السهروردي لا بد من قتله ، ولا سبيل ان يطلق ، ولا يبق
 بوجه من الوجوه " . (٦) ولو انه اراد ان يشفع لشهاب الدين السهروردي لدى السلطان
 ويتوقف قتله لفعل الا انه كان ولا شك متأثراً بالوضع السياسي في البلاد ،

(١) كتاب فيه من كلام الفاضل ٢٦٦ هـ

(٢) المقرئ ٢٦٢ هـ ٢

(٣) سنة ٥٢٩ هـ ، ابوشامة ٢٩٦ هـ ٢

(٤) المقرئ ٢٦٦ هـ ٢

(٥) ابن أبي أصيبعة ١٦٢ هـ ٢

(٦) المصدر نفسه ١٦٢ هـ

فقد كان المسلمون في حرب دينية طاحنة ، وكان هدف الحكام جمع شمل المسلمين وتشبيث عقائدهم لا تبديد همة ، ولذلك نشأ في نفوسهم يومئذ شيء من الفرق والخشية من كل موضوع قد يظن فيه التحيف على الدين ، وهذا شيء طبيعي في أيسام الحروب الدينية ، ولذلك حاربوا الفلسفة والمشتغلين فيها كي لا تنفد ، في ظنهم ، عقائد الناس . ومع هذا فإنه طلب من العباد الاغتفان ان يعرب له كتساب كيميا السعادة للغزالي من الفارسية . (١)

ومن كان لديه مثل هذا الاهتمام البالغ بشؤون الكتب لم يكن من السهل ان يتصور الدارس مراحل التطور في ثقافته ، او يحكم على المدى الذي بلغه فيها ، فقد كان كل محصل القاضي الفاضل قبل ان يرحل الى مصر حفظه للقرآن الكريم ولحماسة أبي تمام ، ثم تعلم فن الكتابة على يد اثنين من كبار كتاب الديوان هما بن الخلال الذي دربه في صنعة الكتابة بحل محفوظه للقرآن والحماسة ، وابن قادوس الديماطي ، (٢) الذي لم يكن يجد عند الوقت الكافي للدراسة عليه فكان يرافقه في ركوبه من القصر الى منزله بمصر ومن منزله الى القصر يتباحث معه في فنون الكتابة والآداب والشعر . (٣) كذلك اتصل باتنوين من كبار محدثي ذلك العهد ، هما ابو القاسم بن عساكر ، (٤)

(١) ابوشامة ٢٠ ، ٢١

(٢) كافي الكفاة ابو الفتح محمود الديماطي ، كان كاتب الانشاء بالحضرة المصرية ، توفي سنة ٥٥٣ هـ ابن ميسر ١١ ، ١٢ هـ ، وللقاضي الفاضل قصيدة طويلة في مدحه ، البيهقي ١٧٥ هـ .

(٣) ابوشامة ١٠٢ ، ١٠٣

(٤) علي بن ابي محمد الحسن بن هبة الله بن عساكر ، من اعيان فقهاء الشافعية ، اشتهر بالحديث وتوفي عام ٥٧١ هـ ابن خلكان ٢ ، ٤٧١ هـ .

محدث دمشق ، وأبو الطاهر السلفي^(١) محدث الاسكندرية ، وأخذ عنهما . وقد صرح الاخبار انه كان ضعيف البضاعة من النحو ، ولكن قوة الدربة كانت توجب له قلة اللحن . وقد ظهرت آثار هذه الثقافة ذات الطابع اللغوي الديني البياني في رسائله وشعره ، وإن كان هذا هو كل ما لدينا من الروايات عن ثقافته فلا بد من أن نفترض - دون خطأ كبير - انه كان " نموذج المثقف " في عصره ، وإن شغلنا شغفه بجمع الكتب لم يكن ترتيبا أو تكملا ، وإنما كان كثيرا الاطلاع والقراءة ، ولعله وهب ذاكرة عجيبة وحضرا ذهنيا فائقا ، فإن طريقته في الاملاء - وقد تقدمت الإشارة إليها - مما يدل على وهي بالغ وحانظة قوية .

(١) أحمد بن محمد بن محمد السلفي ، أحد حفاظ الحديث المكثرين ، شاعري المذهب ، أقام بالاسكندرية وحدث فيها حتى وفاته عام ٥٧٦ هـ . المصدر السابق

شخصیت من حیث آثارها فی بیئتہ

شخصيته من حيث آثارها في بيئته

مثل هذه الشخصية ذات المسؤوليات العريضة لا تنفك بها خصائصها عند حد الذات ، بل تكون بعيدة الأثر متشعبة التأثير في حياة العصر نفسه بما تملكه من صولجان السياسة وقلم التدبير والتجبر ، وما يتيح له التراخي العريض - هي اذن شخصية الذي يملك ان يقول ويعمل معا ، وكذلك كان القاضي الفاضل ، ومن ثم ترك في بيئته أثرا بعيدا عميقا واسعا .

١- فالقاضي الفاضل السياسي كان حقا ذا أثر في توجيه سياسة عصره وفي سند علاج الدين ، الا انه أخفق في سياسة السلم الى حد ما ، فبمسد مجاهدته مع علاج الدين ليحرر البلاد اخطأ في انه واثقه على قسمتها بين ابنائه . والحقيقة انه يجب ان لا نحمله جميع المسؤولية لأن علاج الدين كان يريد هذا . ولكن المسؤولية ايضا ايقظت لديه الحس التاريخي ، على نحو قد فاضططلع بتدوين هذا التاريخ فيما كان يسميه المتجددات ، والمباريات ، وهي مذكرات سياسية عامة ، كان شديد الاهتمام بها ، ولو وصلتنا كاملة لكنت من أدق الصور التفصيلية للأيام الصلاحية وما بعدها حتى وفاة القاضي الفاضل - من نواحيها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وهذا نموذج منها للنمثيل . قال القاضي الفاضل في متجددات سنة سبع وثمانين وخمسة ، في شوال قطع النيل الجسور واقتلع الشجر وفرق النواحي ، وهدم المساكن ، وأتلف كثيرا من النسل والأطفال ،

وكثر الرخاء بمصرء نالفتح كل مائة اردب بثلاثين دينارا والخبز البايث ستة
ارطال بربع درهم والرطب الامثات ستة ارطال بدرهم والموز ستة ارطال بدرهم
والرمان الجيد مائة حبة بدرهم والحمل الخيار بدرهمين والتين ثمانية ارطال
بدرهم والعنب ستة ارطال بوزهرم . وآل امرا صاحب البساتين الى ان يجمعوا
الزهر لنقص ثمنه عن اجرة جمعه وثمر الحنا عشرة ارطال بدرهم والبسرة عشرة
ارطال بدرهم من جيده والمتوسط خمسة عشر رطلا بدرهم ، وما في مصر الا متسخط
بهذه النعمة . قال - ولقد كنت في خليج القاهرة من جهة المقس لانقطاع الطرق
بالمياه فرأيت الماء مطوئا سمكا والزيادة قد طبقت الدنيا والفخل مطوئا تمرا والمكشوف
من الارض مطوئا ريحانا ويقولوا ثم نزلت فوصلت الى المقس فوجدت من القلعة السقي
بالمقس الى منية السرج غللا قد ملأت صبرها الارض فلا يدري الماشي اين يضع
رجله متصلا عرض قللك الى باب القنطرة وعلى الخليج عند باب القنطرة من مراكب
الغلة ما قد ستر سواحله وأرضه . قال - ودخلت البلد فرأيت في السوق من الاخباز
واللحوم والالبان والفواكه ما قد ملأها وهجمت منه العين على منظر ما رأيت قبل مثله .
قال - وفي البلد من المعاصي ومن الجهر بها ومن الفسق بالنزنا واللواط ومن شهادة الزور
ومن مظالم الامراء والفقهاء ومن استحلال الفطر في نهار رمضان وشرب الخمر في ليله من
يقع عليه اسم الاسلام ومن عدم النكير على ذلك جميعه ما لم يسمع ولم يعهد مثله فلا حول
ولا قوة الا بالله . وظفر بجماعة مجتمعين في حارة الروم يتغذون في قاعة في نهار رمضان

فما كنموا ويقوم مسلمين ونصارى اجتمعوا على شرب الخمر في ليل رمضان فما أقيم
فيهم حد . . (١)

وسجل لعصره في رسائله التاريخية وفي ثنايا عهوده وسجلاته .
فقد كان يراقب الأحداث عن كثب ويساهم في بعضها ، كما كان يشهد بعض المعارك
الحربية الدائرة بين العرب والفرنج ويصورها وهو ما زال في أرض المعركة بحيث يصف
كل ما يدور حوله بشيء من الأسباب كقوله في فتح حصن بيت الأخران مثلا : " وكان
مبنيا على صهريج لما فتح المسلمون الحصن رموا فيه ما يناهز ألف تنيل ، ودابة محرقة
بالنار ، فمالأته سدت عرضه ولا ملأت حفرة ، وكان فيه نحو ألف زردية ، والمقاتلة
ثمانون فارسا بغلمانهم ، وخمسة عشر مقدا للرجال ، مع كل مقدم خمسون رجلا ، هذا
إلى الصناع ما بين بنا ومعمار ، وحداد ، ونجار ، وصيفي وسيوني وصناع أنواع
الأسلحة . وكان به من أسرى المسلمين ما يزيد على مائة ألف رجل نزعتم القيود من
أرجلهم وجعلت في أرجل الفرنج ، وكانت فيه اقوات لعدة سنين ، وأنواع اللحوم الطيبة
والخبث فيها بلاغ ومتاع إلى حين . ولما قوتل أول يوم هوجم حوشه وفيه بيرة جماعة
من المقاتلة ، فضررت رقابهم ، وأخذت دوابهم ، وفي الحال علقوا النقب على ^{خمس} خمس
جهات وحشيت بالنيران ، وتأخر وقع الجدران لفرط عرض البنيان ، ولم تنزل النار توفد
ثم تخرج ثم تشعل ثم تخذ . إلى أن تمكنت النقب وحشيت بالأحطاب ، واطلعت
فيها النيران في يوم الخميس ، فبومئذ وقعت الواقعة ، وانشفت الأبرجة فهي يومئذ واهية .

(١) المغريزي ٣ : ٢٨٤

وكان الطاغية مقدم الحصن يشاهد ما حل ببنيانه وما نزل من البلاء بأصحابه واعوانه . ولما وصلت النار الى جهته القى نفسه في خندق نار صابرا على حرها . ففي الحال نقلته هذه النار الى تلك النار . ولما أخذ اسارى الفرنج وهم عدة تزيد على سبعمائة بعد المقتولين ، وما يقصر عدتهم عن مثلها ، توفرت الهمة على هدم هذا الحصن وتعفية أثره وازالة ضرره . (١)

ومن هنا تأتي اهميته في التاريخ ، فهو في الدرجة الاولى شاهد عيان ينقل لنا ما يرى ويتوخى في الوقت ذاته عدو الاخبار التي يسمح بها قبل نقلها ما يدل على امانته التاريخية التي عبر عنها بقوله * كذلك الملتصق امسك حين كانت الاخبار بجانبه مشتبهة ، والحقائق لديه غير متوجهة . (٢) كما ان نقله للأحداث كان مبنيا على شيء من التعليل والتفسير الديني ، فالحاله مسير الأحداث ومكيفها ينصر من يشاء ويهزم من يشاء * . ولا يغتر بكثرة العساكر والاعوان ، ولا فلان الذي يعتمد عليه ان يقاتل ولا فلان . فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها . وانما النصر من عند الله ، ولا تأمن ان يكلنا الله اليها ، والنصر به واللفظ منه ، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا ، فلولا انها تسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل ، وفيض دمع الخاشعين قد غسل ، ولكن في الطريق عائق خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق . (٣) ولعل من عيوب القاضي الفاضل كمؤرخ اهتمامه الزائد بالاحساب ، ومبالغته في بعض الأحيان ، الا ان هذا لا يضع من اعتبار رسائله من مصادر دراسة الفترة المعتمدة التي لو جمعت بأكملها لأعطت خير صورة عن الفترة .

(١) ابوشامة ١٣٤٢

(٢) القلقشندي ٥١٦٤٦

(٣) ابن كثير ٢٣٩٤١٢

٢- والقاضي الفاضل الشرف الخير الذي يملك القدرة على الانشاء

والتعمير بحكم مركزه وراثته وحبه للخير ، كان يهتم بالمنشآت العامة ، وبخاصة المدارس فانشأ المدرسة الفاضلية التي وقفها على طائفتي الفقهاء الشافعية والمالكية وجعل فيها قاعة للاقرء (١) اقرأ فيها الاسام ابو محمد الشاطبي (٢) القرآن الكريم وقراءته والفحو واللغة . (٣) كما اقرأ فيها تلميذه محمد بن عمر القرطبي وغيرهما . ورتب فيها فنيها لتدريس فقه المذهبين ، ووقف بها مجموعة كبيرة من الكتب في العلم يقال انها كانت مائة الف مجلد . (٤) ودار الحديث الفاضلية خصصها لتدريس الحديث ومسجدا بدمشق . (٥)

ووفقا لذلك ايضا كان شديد الاهتمام بالعلماء والرعاية لشؤونهم وتدبير مصالحهم ، ذكر الفقيه اسماعيل بن صالح القفطي خطيب عيذاب (٦) انه لما فتح السلطان الساحل ارتحل عن عيذاب لزيارة بيت المقدس ، ولما مر بالشام أعجب بمناخها ومناظرها وتمنى السقام بها فقصد القاضي الفاضل وسأله ان يتوسط له لدى السلطان ليؤليه خطابة قلعة الكرك فكتب له كتابا تلتف فيه . (٧)

(١) المقرئى : ٣٦٦ ، ٢

(٢) ابو القاسم بن فيره الرعياني ، أندلسي الاصل ، كان ضريرا ، دخل مصر عام ٥٧٢ هـ وسمع الحديث عن السلفي ، توفي عام ٥٩٠ هـ "بدوى" ٩٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ٩٨

(٤) المقرئى : ٣٦٦ ، ٢

(٥) بليدة على بحر العلزم وهي مرسى المراكب القادمة من عدن الى الصعيد الآخر

(٦) القفطي : ٨٩ ، ١

(٧) السفدى : ١٧ ، ٤

كما أبدى اهتماما كبيرا بالطبيب موفق الدين البغدادي (١) عندما وفد عليه في عكا ولبى طلبه في تأمين عمل له في مصر، وأوصى به وكيله فيها ابن سناء الملك وكان يرسل كل عشرة ايام رسالة الى وكيله بمصر مخبرا بتطورات الموقف بين المسلمين والفرنجة وموصيا بموفق الدين البغدادي (٢) وكان يقوم برعاية ابي عمران موسى بن ميمون القرطبي (٣) بالرغم من اشتغاله بالفلسفة ولعلم لم يتسبب في اضطهاده كما فعل بالسهروردي لأن الاخير كان يهوديا . وبالفقيه النحوي شيت بن ابراهيم القفطي ويقبل شفاعته في حق من يشفع فيه (٤) وبأبي القاسم الشاطبي الذي اشترط عليه شروطا عديدة قبل العمل في مدرسته ، وافق عليها جميعها وانزله على الرحب والسعة . (٥)

- (١) موفق الدين عبد اللطيف البغدادي ، بغدادى المولد اتصل بصلاح الدين والقاضي الفاضل وأقام يدرس الطب في الجامع الأزهر في القاهرة وانتقل في آخر حياته الى حلب ، ابن ابي أصيبعة ٢٠٢ هـ ٢٠٧ هـ .
- (٢) ابن ابي أصيبعة ٢٠٢ هـ ٢٠٢ هـ .
- (٣) طبيب يهودى الأصل ، كانت له معرفة بالفلسفة . اقام في مصر من صلاح الدين ثم انتقل لخدمة ابنه الأفضل ، ابن ابي أصيبعة ٢٠٢ هـ ١١٧ هـ ٢٠٥ هـ .
- (٤) من أهالي قفط بمصر ، درس الفجر وحنبل فيه ، توفي عام ٦٠٠ هـ . القفطي ٧٣ - ٧٤ هـ .
- (٥) بدوى ، الحياة العقلية ٩٨

٣- والقاضي الفاضل الكاتب الشاعر لم يكن فحسب نمودجا
يحتذى في الكتابة ولا كان شاعرا منقطعا لنفسه فحسب ، بل كان موجها للحركة
الشعرية والحركة الأدبية في عصره ، وكان ذلك يتم على صور عدة ، منها ان شخصه
كان " مركز الدائرة " لكثير من أدب هذا العصر ، فمداخوه كثيرون ، والكتب
تؤلف باسمه وترفع اليه في شتى الموضوعات ، وهو لا يكف عن ان يطلب من
المؤلفين ان يكتبوا في هذا الموضوع او ذاك ، وفي مجلسه تدور الاحاديث والمباحثات
التي يلتقي حولها المثقفون ، وهو " الراعي " الذي يهتد بأمر الأديبا ويقربهم من السلطان
ويحسن اليهم ويطلب لهم المساعدات ويوجد لهم الوظائف ، فمن ألفوا له محمد بن
هبة الله البرمكي الحموي - الأمام تاج الدين ، ارجوزة في الفرائض سماها روضة
المرتاض ونزهة الفرائض قال فيها ، جمعتها لجامع الفضائل ، الأوحد الأجل الفاضل
محي موات الفضل ذي الجد العلي عبد الرحيم بن ابي المجد علي ، أهدي اليه قطرة
من بحره ، اذ كل ما أنظمه من نثره

وهو الذي اجمع كل عالم في عصرنا من ناثر وناظم

بأنه الحبر النسيج وحيد ، في علمه ودينه وزهده (١)

وصنف له الأشعد ومن مائتي تصانيف عدة باسمه . (٢)

(١) السبكي : ١٩٦٤ : ٤

(٢) ياقوت : ١١٣٦ : ٦

وكانت مجالسه مدارا للنشأطين الفكرى والآدابى ، وملتقى لشعراء
العصر وكتابه ومحبي الآدب فيه ، يجتمعون للحديث والمناقشة في موضوعات
وفنون مختلفة ، ورئيس المجلس - القاضي الفاضل - يشاركهم ابحاثهم ويدبر دنة
نقاشهم بكل حكمة ولباقة ويطلق على بعضهم القابا مختلفة حسب اسهامهم في
المجلس - فيسي الأشعد بن ماتي مثلا بليل المجلس لما يرى من حسن خطابه (١)
ويفتح المجال للأدباء الموجودين عنده لنقد بعضهم ، ذكر ان الأدباء كانوا مجتمعين
عنده في احدى المناسبات ، وكان العماد الأصبهاني حاضرا عنده فلما انفصل قال
الفاضل للجماعة : بم تشبهون العماد ، وكان عنده فترة عظيمة وجمود في النظر
والكلام فاذا اخذ القلم أتى بالشر والنظم فكلهم شبهه بشي فقال ، ما أصبتم ، هو
كالزناد ظاهره وباطنه فيه نار . (٢) ويفتح ابوابا للنقاش يختبر فيها ذكاء السامعين
فيه وثقافتهم ومدى قدرتهم على النقاش ، تحدث علي بن ظافر الردي عن احد
مجالسه بقوله " دخلت يوما على القاضي الفاضل رحمه الله فجرى في مجلسه من فنون
المذاكرة ما أدها الى ان قال ، كان الرشيد احمد بن الزبير قد اجتمعت فيه صفات
وأخلاق تقتضي ان تجود معاني الهجاء فيه . من ذلك انه كان اسود ولا يزال
يدعي الذكاء ، وان خاطره من نار فقال فيه ابن قادوس :

(١) المفريزى : ٣ ، ٢٦٠

(٢) الصندى : ١٣٩

ان قلت من نار خلفه ت ونفت كل الناس فهما
قلنا صدقت فما السدى اطفائك حتى صرت نحرما

وارسل الى اليمن ولقب علم المهتدين فقال فيه بعض الشعراء من قطعة
يخاطب الخليفة :

بعثت لنا علم المهتدين ولكنه علم أسود

يعني ان الأعلام السود انما تكون للعباسيين وأعلام تلك الدولة بيض .
وتولى مطايخ الخليفة فقال فيه بعض الشعراء يخاطب الخليفة :

تولى على الشي' اشكاله فتحسب هذا لهذا أخا

تولى على المطيخ ابن الزبير تولى على مطيخ مطبخا

وكان ينافرنى سوق الشعر ويسرق المعاني فقال فيه ابن نادوس :

سلخت اشعار الزوى جملة حتى دعوك الأسود السالخا

فأخذ الأشعد بن الخطير يستحسن هذه القطعة فنقلت له كما تقول

الا انه لحن في قوله الأيود السالخ فانما يقال اسود سالخ وسام أبرص ،

فاللحن يقيم الوزن والصواب يكسره فهو بين خطئى خسف فأخذني المشاقبة الى ان

قال من اين نقلت هذا ، فقلت احضر شاهدي عندك الساعة كتاب الحيات من كتاب الحيوان

للجاحظ ، فقال ، الجاحظ ليس من اهل اللغة ، ونقله في هذا الموضع لا يسمع ،
فقال الأجل الفاضل ، دح هذا فالصواب مجبه وهذا مجمع عليه ، ولكن عرفنا كيف
كان يصنع حتى ينظم المعنى ، نقلت يترك هذا الوزن وينظمه في وزن يستقيم عليه
الصواب فقال انظمه لنا فنقلت ارتجالا ؛

وسلخت اشعار البرية كلها حتى دعيت لذاك اسود سالخا

فقال مثلك يقول لذاك ، نقلت حتى دعاك الناس ، فقال انما كنت أريد ان تنظمه
أخصر من بيته ، ودخل عليه من انقطع طلبه لدخوله ، فلما سكن قال تعرف له
رجها يذهب النفس عنه ويخلصه من الطعن عليه ، قلت مولانا اعلم فقال انه حكى
عن الناس تلقينهم اباة بالاسود السالخ فكانه لحن على الحكاية لا لأنه حكى عنه
هذا فاستحسنه وان لم يكن صحيحا من الاعذار ، ثم خرجت فلقبت الاسعد بن
عبد الرحمن بن شيت فحكيت له الحكاية فقال لما طلب منك اختصاره كت تقول ، وقال
على الفور ؛

وسلخت اشعار الفوري فدعوك اسود سالخا (١)

وفي مجالسه كانت تتجلى المواهب الشعرية فينظم الشعر بديها وترتجل
الابيات في موضوعات مختلفة . ذكر الأزدى انه غنى بين يدي الملك العزيز دوبيت
بالعجمية معناه انه بجلاء جعل الليل برد دار للحبيب ليحجب المشمخ الشمس
فاستحسن المعنى وأرسل الى وزيره الأجل نجم الدين ابي الفتح يوسف بن المجاور بأمره
ان يصنع المعنى في شعروان يأمر الشعراء بالعمل في ذلك فصنع بديها وأرسل اليه ؛

(١) الأزدى ؛ ٢٠٠٦ - ٢٠٦

ر. حاجب

قال له الليل انصرف راشدا فانه استخدمني برد دار

ثم صنعوا بعده من مروا وباده ، وذكر الأشعد ابوالمكارم اسعد بن الخطير قوله
كنت عند الفاضل رحمه الله تعالى اذ دخل الوزير نجم الدين فأخبره بما طلب
السلطان وأنشده ما صنع فقال الفاضل ه هذا معنى كنت نظمته قديما الا انسي
استخدمت بوابا فقلت :

بتنا على حال تسوء العدا ورينا لا يمكن الشرح
بوابنا الليل وقتلنا له ان غبت عنا هجم الصبح

(قال الأشعد) ولم أكن صنعت شيئا فصنعت بديها :

قلت لليل عندما زارني البدر وأرجست خيفه للروح
أنت يا ليل برد دار حبيبي فتأهب لدفع صدر الصباح

قال فاستحسن الوزير القسم الثاني . (١)

وكانت مجالسه هذه مجالا لتعارف الأديبا ووصلهم بالحكام ،
ذكر ان أول معرفة عز الدين فرخشاه بتاج الدين ابي الحسن الكندي جرت في مجالسه ،

(١) المصدر السابق ٢٤ ، ٧٤

والتقى بالعماد الأصفهاني (١) في حمص ، فمدحه العماد بأبيات منها :

عانيت طويلا سكينه ورأيت دسر من فضيلة ووردت بحر فواضل
أبصرت نسا في الفصاحة معجزا فعرفت اني في فهاهة باقل (٢)

فدخل الفاضل على صلاح الدين ورفقه بالعماد ثم قال " انا لا يمكنني
الملازمة الدائمة في كل سفرة وهذا يكاتبك ملوك الاعاجم ولا تستغني في الملك من
عقد الملطقات وحل التراجم والعماد يفي بذلك ، ولك اختاره وقد عرف نفسي
الدولة النورية مقداره " . (٣) وأصبح العماد بعدها الكاتب الثاني لصلاح
الدين بعد القاضي الفاضل . ووصد الفاضل بصلاح الدين عددا آخر من الشعراء
والأدباء من بينهم الخطير بن ماتي (٤) وأبو القاسم عبد الرحمن بن هبة الله بن
حسن بن رفاعه (٥) وابن سناء الملك (٦) ، وشرف الدين محمد بن اسعد الجواني
الحسيني . (٧)

-
- (١) عماد الدين الأصفهاني ، الكاتب المشهور قدم الى الشام في عهد نور الدين
ثم اتصل بصلاح الدين ، وكان يلزمه للكتابة اثنا غياب القاضي الفاضل ،
" ابن خلكان : ٢٢٣ ، ٤ - ٢٢٥ " .
- (٢) الأصفهاني : ٣٧٤ ، ١
- (٣) ابوشامة : ٢٥١ ، ١
- (٤) كان علي ديوان الاقطاعات زمن الفاطميين ، ثم عمل وابنه الاسعد في الديوان
الفاضلي " الأصفهاني : ١١٣ ، ١
- (٥) من الشعراء المصريين توفي ٥٩٢ " الأصفهاني : ٥٦٠
- (٦) كان يعمل نائب للقاضي الفاضل في ديوان الانشا بمصر ، ودارت بين الاثنين رسائل
عديدة . توفي عام ٦٠٨ هـ " ابن خلكان : ١١٢ ، ٥ " .
- (٧) كان نقيب الاشراف بمصر ، وهو شيعي المذهب ، توفي عام ٥٨٨ هـ " الأصفهاني :
" الأصفهاني : ١١٢ ، ١ هاشم " .

فقد جرى ذكر بيت من شعرا أبي الطيب فتكلم فيه تاج الدين بما يليق ، فأعجب فرخشاء
وسأل القاضي الفاضل عنه فقال ، هذا فلان ورفقه بفضل ، فلما قام فرخشاء من مجلس
الفاضل أخذ بيد الشيخ تاج الدين وخرج به ولزمه إلى أن توفي . (١) كما كان معظم
المجتمعين فيها ممن سبق للقاضي الفاضل التعرف إليهم ، وتقريبهم من السلطان ،
واعطائهم المناصب اللاتقة بهم ، ورعايتهم ، والاهتمام بأمرهم . ولا لما كان يراه من
نبرفهم . فقد توطدت علاقته بالمهذب بن أسعد بن ماتي ، (٢) عندما قصد
الأخير صلاح الدين وهو مخيم بظاهر مدينة حمص ، وهناك بقصيدة أولها :

ما نام بعد البيه يستحي الكرى إلا ليطره الخيال إذا سرى
كلف بقر بكم فلما عافه بعد المدى سلك الطريق الأخصرا

وكان الفاضل جالسا مع السلطان فقال له ، هذا الذي يقول " والشعر ما زال عند
الترك متروكا ، وكان يعني القصيدة التي قالها في مدح الصالح بن رزيق :

من ارتجى يا كريم الدهر تنعشني جدواه أن خاب سمعي في رجائيكا
المدح الترك أبقي الفضل عندهم والشعر ما يزال عند الترك متروكا

فعجل جائزته لتكذيب قوله . فجمع السلطان له بين الخلعة والضيعة (٣) . وانقطع

(١) أبو شامة : ٢ ، ٣٥

(٢) الأسعد بن الخطير ، كان ناظر الدواوين في الديار المصرية ، أسلم زمن صلاح الدين يافوت
" يافوت " ١١٣٠ ، ١١٣١

(٣) أبو شامة : ١ ، ٢٤٠

٤- علوان من أهم المظاهر التي تشير إلى تأثير الفاضل
" شخصية الناقد " لديه ، وقد كان في هذه الناحية مرجعاً في الحكم على الأقرب
والأدب ، وأصبح لرأيه وزنه الخاص ، ولترجيحاته مدلولاتها البعيدة ، وربما رأينا في
أحكامه النقدية اليوم سداً جة أحياناً أو اهتماماً بالجزئيات أحياناً ، لا أنوعاً من
التفريط وبخاصة لقصائد ابن سناء الملك . ومع ذلك فيجب أن لا ننقل إلى أهميتها
لأنها صادرة عن رجل كان يعد الأدباء من حوله أمماً لهم .

فهو الذي شجع العماد الاصفهاني على عمل مختارات لشعراء العصر ،
فأنجزها العماد في ما سماه " الخريدة " - ومن ضروب هذا التشجيع أن القاضي
الفاضل أعداء تسع مجلدات من الكتب النفيسة تشتمل على أشعار أهل العصر
المغربيين وآدابهم ^{وآدابهم} ودله فيها على بعض ما جاءوا فيه من المعاني المبتكرة
وأفرائهم فيها وأعجازهم وأعجابهم . (١)

كذلك تشجيع ابن سناء الملك على صنع مختار من شعراء الرومي ،
فبدأ ابن سناء الملك العمل مختاراً حرف الألف بعد أن قرأه على القاضي الفاضل
ووجد بالاكمال ثم سافر إلى دمشق فكتب إليه القاضي الفاضل يستحثه على إنجاز هذا
العمل ويقول : " كان القاضي السعيد لما وصل إلى دمشق عائداً من عمله فقرأه
شعراء الرومي واختباره فاختر حرف الألف وتوجه قبل تمام الاختيار ووجد بأنه يكمله ،

(١) الاصفهاني : ١ ٤٤٤

فلم لا أنجز معاده ولم لا أجعل مرادى مراده وكان يبرز من الشعر محاسنه
المعمورة ويلفظ أبياته الخراب ويبقي أبياته المعمورة وكان ابن الرومي / يمدح
يشكره في لحنه ويستعير السنة الأحبار في حمده . . . فأجابه ابن سناء الملك . . . اما ما
أمر المولى به من شعر ابن الرومي فما المملوك من اهل اختياره ولا من الخواصين
الذين يستخرجون الدر من بحاره لأن بحاره زخاره واسوده زأارة ومعدن تهره
مردوم بالحجارة ، وعلى كل عقيلة منه الف نقاب بل الف ستارة بطمع ويؤنس وينفر
ويؤنس وينفر ويظلم ويصبح ويعتم شذرة ومعة ودرة وأجرة وقبلة بجانبها السبة
وحرة تجاورها فحبة ووردة حف بها الشوك وبراعة فظف غطى عليها النوك لا يظلم
يصل الاختيار الى الرطوبة حتى يتجرح بالسلى ولا يقول عاشقها هذا الطيح قد
أنبل حتى يقول قد ولي . . . فالمولى من جهابذته فكيف وقد تنلس فيه الوزير ولا من
صيارفته ونقاده ولواختاره جرير لأعياء تميز الوشي من الحشي والوبر من الحرير .
والمملوك يكمل بمشيتة الله تعالى بنية قراءة حروفه ولكن بين يدي من قرأ بين يديه
حرف الألف لي شاهد من مولا معجز اختياره الذي يجعل المختلف فيه من الشعر
المؤتلف . . . (١)

وهذا يدل على عناية القاضي الفاضل بشعر ابن الرومي ، كما ان رأى
ابن سناء الملك يدل على تهيبه لاقتحام هذا البحر الخطير ، وهي شهادة لابن الرومي
ومدى العناية به في القرن السادس الهجرى .

ويستشهد العماد برأى الفاضل في غير موضع من كتابه حسين
يتصدى لأحد الشعراء ، فأبو الحسن بن زيد الانصاري رجل لم يسمع الدهر بمثله (١)
(في رأى القاضي الفاضل) ورضي الدولة أبو سليمان المحلي شاعر مله فكيه -
كذلك قال فيه القاضي الفاضل . (٢) واعتقد ان القاضي الفاضل لم يكن يرسل هذه
الاحكام ارسالا شفويا ، وانما كان له مجموع مكتوب في شعراء عصره - ~~والفصل~~ والعماد
ينقل منه ، ولكن هذا المجموع الذي أقدر ان القاضي الفاضل الله لم يصلنا .

وهناك جانب من نقد القاضي الفاضل شكلي بالانفاظ ، فقد عاب
على ابن سناء الطك استعماله كلمة " الكس " في بيت من ابياته وهو :

صليني وهذا الحسن باق فريما يعزل بيت الحسن منه ويكس

قال له فيه " وما قلت هذه الغاية الا وتعلمني انها البداية ، ولا قلت هذا البيت
آية القصيدة الا قائلا ما بعده ، وما نريهم من آية ، أنسحر هذا أم انتم لا تبصرون .
ولا عيب في هذه المحاسن الا قصور الافهام ، وتقصير الانام ، والا نقد لهج الناس بما
تحتها ، ودونوا ما دونها ، وشغلوا التمانيف والخواطر والأقلام بما لا يقاربها ، وسارت
الأشعار وطالت بما لا يبلغ مداها ولا نصفه ، والقصيدة نائفة في حسنها ، بديدة
في فنها ، وقد ذلت السمن فيها وانقادت ، فلو انها التلوا لما رادت ، وبيت يعزل ويكس ،
الراء

(١) الأصفهاني ٢١ ، ٤٥

(٢) المصدر نفسه ٢ ، ٤٥

أردت ان اكتسه من القصيدة ، فان لفظة الكس غير لائقة في مكانها * . فأجابه
فأجابه ابن سناء الملك قائلا * وعلم المملوك ما نبه عليه مولانا من البيت الذي
أراد ان يكتسه من القصيدة ، وقد كان المملوك مشغولنا بهذا البيت الذي أراد
ان يكتسه من القصيدة ، مستحليا له متعجبا منه ، معتقدا انه قد ملج فيه ،
وان قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه ، وما أوقعه في الكس الا ابن
المعتر في قوله :

وقوامي مثل القناة من الخط وخدي من لحيتي مكثوس

والمولى يعلم ان المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثر ، ويطلب مطالبه
فتتسر عليه وتتعذر ، ولا آنس ناره الا لما وجد عليها هدى ، ولا مال المملوك
الا الى طريق من ميله اليه طبعه ، ولا سار قلبه الا الى من ^{دله} عليه سمعه ،
ورأى المملوك ابا عبادة قال :

ويا عاذلي في عبرة قد سفحتها لبين ، وأخرى قبلها للتحبيب
تحاول مني شيمة غير شيمتي وتطلب مني مذهباً غير مذهبي

وأورد حججا كثيرة يبرر فيها استعماله لهذه الكلمة ، فأجابه القاضي
الفاضل بقوله * ولا حجة فيما احتج به عن الكس في بيت ابن المعنى ، فانه غير
معصوم عن الغلط ، ولا يقلد الا في الصواب فقط ، وقد علم ما ذكره ابن رشيق

في عمدته من تهافت طبعه ، وتباين وضعه ، فذكر من محاسنه ما لا يعلق معه كتاب ، ومن بارده وغمه ما لا تلبس عليه ثياب * . (١) وقد استشكل الصفدي على وقفه القاضي الفاضل هذه من مثل هذه الكلمة وقال * ان الفاضل نفسه ممن يتوخى هذه الالفاظ ويقصد بها ويغشيها وينشد ها ويورث زنادها ويوردها في بعض رسائله ، وما استطاعت ايديهم ان تقبض جمره ولا البابهم ان تسبيخ خمره ولا سيوفهم ان تكمن فيه ولا اعراضهم ان تأخذ لطيمه * . (١)

ومن أمثلة ذلك تعليقه على قصيدة لابن سطة الملك يمثته فيها بالقدم
من دمشق : " وها رأيت أغرب من مطلع القصيدة ولا أدل منها على شطارة
طبيع ولا من بيت الكأس المكسورة ولا أدل منه على صلابة ينبع ولا من الورق الخضمر
" يشير إلى أبيات في القصيدة يقول فيها الشاعر :

وساحره عانت سلافة جفنها
بكأس به كسر وهذا هو الصحر
ولا تنكروا منها الخضاب فانما
هي الغصن في اطرافه الورق الخضر

ولا هو أدل منه على رقة طبع وشدة نزغ، ما هو إلا مالك عنان الفضل في عصره
 وواحد كل دهر ولا اسمح بهذه المنجية لدهره، وما تخصصت إلا ~~بغيبية~~ بغيبية ابن المعتر
 عن أن يسمع كما نسمع فيقطع بفضلنا كما نقطع، ويكف عن عدو^ا تشبيهه، وينفي عن
 غلوا^ا توجيهه، ونوافقه على أنه اتكأ واتكل على ذي الرمة فأخذ في طريقه مستأشبا برقيقه،

(۱) القلقشندی : ۲۴۱۶۲ - ۲۴۱

(٢) الصفدي ٢٢٦ ٥ ٢ ١

فما ترك له تشبيهها الا نقله ، وصفله ، واستعمله ، واستنزله ، وروجه ، ورنده ،
وأخرجه ، وخرجه ، ولو تأمل شعر ذي الرمة لخرج منه ما قاله برمته وعرف انه قال
فيلان فغار على بنات فكرته ، فكان ابن المعتز يخلع على تلك البلاغة خلعة من
ملك الخلافة فتشبه يوماء ويرجع على عن القول بامامته من المبايعين والمتابعين
فوماه وكان يصدق شيخ البلاغة ان يقول ، ولكمه صوب العقول ، وصاحبنا هذا صحبت
الديم وصحبه النعم ، وسبح بحمد القلم ، ما استأنس الا بنفسه ولا رأى مثلها
ولا يرى ولا يرى ولا أخرج الا من كيس فكره النفوذ التي تباع بها القلوب
وتشتري " . (١) وتعليق آخر على قصيدة نائية لابن سناء الملك ايضا حيث يقول " فأما
النائية فالواو عندما نأنا ومن هو الوار الركيك بل كل شاعر مفلق على حروف المعجم
عندها نأنا وأوجه الحساد عند سماع قوافيها أفاء " ، ولو روى سار بنظرة عندى لوفت
ولو استعطفت الفصاحة العربية الألسنة العربية بكلمة منها لعطفت وانعطفت ولو ان البلاغة
حلة لكان لايسها ولو ان الشعر حلبة لكان فارسها " . (٢) وله تعليق على قصيدة
ثالثة بقوله " وهي قصيدة فريدة صارت بعدها القصائد قصدا وطريقة فيها صارت طرائق
البلاغة بعدها قددا ، وان قلت انها نادرة فالنادر رأيت ، او سيارة فانها لا تحتاج
الى لسان راويها ولا الى يد ناقلها فهي تدعى نفسها باسراق شمسها ولا تزال
جديدة الايام يوم قد ومها وكل الليالي ليلة عرسها ، تلا تعدوان تدير على العقول

(١) ابن سناء الملك ، هامش ، ٢٧٨ - ٢٧٩

(٢) المصدر السابق ، هامش ، ٤٧٥ - ٤٧٦

كأما لا يجني الحديث في طريق فهمها ما يجني الحديث في طريق
الكأس من جنسها * (١)

غير أن هذه الأمثلة وإن كانت تنحون نحو المدح والثناء - مع نقد
يسير في بعض الأحيان - تدل على مدى رعاية القاضي الفاضل لتلميذه وصديقه
ابن سناء الملك ، وإن حماسه لاتجاهه الشعري ، إنما كان بوحى من هذا التشجيع
المتواصل .

وله تعليقات عديدة على بعض رسائل العماد يقول في أحدها :
" نأما الرسالة التي لزم فيها الحرفين وهما الميم والدا ل ، وهما للخطا الحرفان
اللذان لزم مجموعهما خاطرها ، وهو المد الذي لا يتعقبه جزر ، ولا يأتي عليه
حصر ولا جزر ، ولا يعارضه سايح الا احتجف ، ولا يبارى سحره قائل الا
ووقف ، فتلك رسالة شغلي لحظات العيون منظرها ، ولا تبضات الأيدي
جواهرها ، ولا أحصيت خواطر عبد ، الا منذ انتجعها ، ولا ملئت اذن الا منذ سمعها
ولا اهتدى في مضال الكتابة الا منذ اوقد النصل نارا على علم من كتابه ورفعها ،
فتبارك معطيها ولله متعاطيها ، لقد ظن ان نتج ورقها انه يخصف عليه من
ورق الجنة حقا ، وقال يقول اصلها كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا ، ان تشابه التجنيس
لفظا وخفا ، وزهت روضته بغصون اسطر تشبه ضبطا ونقطة ، وشافيت محاسنها الاذن

(١) المصدر السابق ، هامش ، ٢١٧

فعلقت منه قرطا ، وجاءت بمنطق العرب الأصيل وأخذت على خواطر الوصف كل
وصفيل وقطعت عليه عربيتها طريق المعارضة قطع الاعراب وكان كتابها لجل ولكل
أجل كتاب . (١) ويقول له في رسالة أخرى * ونفذت يلاعته بسلطانها ، ونفتت
بسحر بيانها ، وصلى القلم من يده في محراب من طرسه على سجادة ، وجاء منه
كتاب لو كان من البحر مداد لما زاد ، وكم كتاب لا يساوى مداده ، وتحاشرت فيه
اجناس التجنيس و... الأتلام فأدت ما كانت استمدته وقت كونها خسا لساكن
الخنس ، وجاء النبط العالي والغاية التي لا يصلها التالي ، ولا يسلو عنها السالي ،
وأخذت روضة الأدب زخرفها ، وحملت من الرسالة أحرفها ، وشتت الغارة على
السمع والبصر ، وزارت بليلة كليله الدوائب حسنها في الطول وحسن الليالي في
البصر . وسلم بها من اسلم وبعت الذي كفر . (٢)

أما شخصيته من حيث أثرها في الفن والشعر فتحتاج ان نفردها
القول في فصلين تاليين ، لاتساع هاتين الناحيتين ، أعني كونه ناظرا وشاعرا .

(١) المختار من كلام الفاضل ، ١٥

(٢) المصدر نفسه ، ٤٠

الكتاب الثالث

القاضي الفاضل النائر والشاعر

القاضي الفاضل الناصر

صورة موجزة لحال النثر قبل القاضي الفاضل

١ - النثر في المشرق الاسلامي

عرف السجع ، احد عناصر الكتابة الفنية ، في النثر العربي منذ العصر الجاهلي (١) ثم ظهر ظهورا واضحا في القرآن والآحاد يث النبوة وخطب الخلفاء (٢) فيما بعد وظل ملازما للكتابة العربية يظهر فيها بين آن وآخر على أيدي بعض الكتاب حتى أصبح عاما بين الكتاب في نهاية القرن الثالث للهجرة . (٣)

اما في القرن الرابع فبرزت عناصر فنية أخرى الى جانبه على اقلام جماعة من الكتاب ظهورا في الامارات الفارسية المنفصلة عن جسد الخلافة العباسية (٤) آثروا البديع واظهروا اعتناء بالمحسنات اللفظية والمعنوية ، واسرفوا في توشية الكتابة بغنون التورية والموازنة والسطاقة والمجانسة ، والتمروا السجع في جميع الرسائل وضعوا رسائلهم ابياتا من الشعر والنثر كما ألفوا في موضوعات خاصة كالغزل والمديح والهجاء والفخر والوصف . (٥) اشتهر من بينهم ابن العميد الذي جمع في نشره

(١) المقدسي ١٤١ : ١

(٢) مبارك : ٧٠٤١

(٣) ضيف : ٨٩

(٤) مبارك : ١٠٥٤١ : ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٢

بمن طريقة العصر السابق له ، والطريقة الجديدة المبنية على التأنيق (١) فاهتم في نشره بالسجع القصير المتوازن ، والجناس ، والطباق ، والتصوير ، وضمن رسائله بعض ألفاظ القرآن وأبياتا من الشعر . وتغارب في اشاراته التاريخية واللغوية والعلمية . (٢) والمصاحب بن عباد (٣) الذي اعتمد في رسائله الى حد بعيد على البديع ولجا في حالات عديدة الى استعمال الالفاظ ذات الحروف الضخمة ، حروف التفخيم والاطباق كالفاف والضاد ، والظاء ، والصاد ، والطاء ، ليجعل للكلامه جلجلة ورنينا (٤) وابواسحق الصابي (٥) الذي اعتد في تكلفه اكثر من زميله ، وكان لهؤلاء الكتاب وغيرهم من قلدوهم يد في تحويل الكتابة الى تحف نفية خالصة يراد بها قبل كل شيء ان تعبر اجمل تعبير عن كل ما يمكن من زخرف وحلي وتنميق . (٦)

وظهرت في فترة غير بعيدة من هذه مجموعة أخرى من الكتاب لم يكتفوا بالخصائص الفنية التي استعملوها هؤلاء الكتاب فراحوا يسرفون في استخدام البديع

-
- (١) القندسي ، ٣٦٢ هـ ، ١
 - (٢) المصدر نفسه : ٢٦٦
 - (٣) فارسي الأصل ، وزير لمؤيد الدولة وفخر الدولة ، من حكام البويهيين حتى وفاته عام ٣٨٥ . وكان تلميذا ابن العميد . يافوت ٦١ : ١٧١
 - (٤) مقدمة رسائل المصاحب
 - (٥) ابراهيم بن هلال الحراني ، تولى ديوان الانشاء ببغداد عام ٣٤٩ هـ ابن خلكان ١٣١ : ٣٤ - ٣٥
 - (٦) ضيف ، ١٠٩

ويعقدون اساليبهم ويعتنون بوحدة النافية في كثير من الأحيان ، ويلجأون الى التهويلات والمبالغات ، ويسرفون في الاعتماد على الطباق والجناس ومراعاة الفطير بين الالفاظ والكلمات ويستعملون الغريب من الالفاظ ويكثرون من الأمثال والاقتباس عن القرآن (١) كابن بكر الخوارزمي (٢) وديع الزمان الهمداني (٣) وقابوس بن وشكير (٤) ففسحوا المجال لغيرهم من كتاب العرب لتقليد هم واضافة عنصر التعقيد الى الكتابة العربية بعد هم بأجيال .

ب - النثر في مصر

بدأت أهمية النثر تظهر في مصر مع ظهور ديوان الانشاء فيها زمن احمد بن طولون (٥) الذي استكتب ابن عبد كان (٦) وجاء ببعض الكتاب

-
- (١) تراجع بعض رسائلهم في يتيمة الدهر للنعالي ، ٤ و ١٦٢
 - (٢) ولد وقشاً في خوارزم ، واستقر في نيسابور حتى وفاته عام ٢٨٢ هـ * النعالي ١٢٣ و ٤
 - (٣) ابو الفضل احمد بن الحسين ، من اهالي همدان ، اشتهر بمقاماته الاربعمائة التي كتبها وتوفي بهراة عام ٢٩٨ * المصدر نفسه ، ٢٦٢
 - (٤) كان صاحب جرجان وطبرستان ، اشتهر بنرسله وتوفي عام ٤٠٣ هـ (ياقوت ١٦ ، ١٩ و ٢٢٠)
 - (٥) ولي الحكم بمصر عن المعتمد عام ٢٦٦ هـ ، توفي فيه حتى وفاته عام ٢٧٠ هـ * ابن خلكان ١٥٦
 - (٦) ابن عبد كان ، ابو جعفر محمد بن احمد بن مودود ، من اشهر الكتاب زمن احمد بن طولون * القلشندي ١٥ و ٩٥

من العراق لمعاونته في الكتابة ن زاد في اهمية الديوان وأثره . (١) ولم يخرج ابن عبد كان في أسلوبه عن الكتاب المشرقيين ، فقد اظهر اعتناؤه بالسجع القصير والازدواج (٢) وتضمن رسائله آيات من القرآن ، واهتمامه بالتصوير . كما وضع اصول الابتداءات في الرسائل وافتتاحاتها ، واصل اختتامها وعنواناتها . (٣)

وفي العهد الفاطمي عظم امر الديوان ، واهتم به الخلفاء وراحوا يختارون لرئاسته خيرة الكتاب المسلمين والذميين حتى انتهى عهدهم ورثبسه القاضي الفاضل الذي استمر عليه حتى نهاية عهد صلاح الدين . (٤) وازدهر النشر المصري في هذه الفترة بازدهار ديوان الانشأ وظهور عدد كبير من الكتاب لم نستطع ان نتيين مذاهيبهم الفنية في الكتابة لفقدان آثارهم . (٥)

اما خصائص نشر كتاب هذه الفترة بوجه عام فمشاركة بينهم وقائمة على التزام السجع ، والاقتباس من القرآن ، والمبالغة في استخدام الزينة اللفظية والمعنوية . فقد اصبح الكتاب يفرقون في المبالغة حين يحاولون تشخيص المعاني ، ويولعون باستخدام الجناس ، ويكلفون في تركيب جملهم بمراعاة النظر ، وهي الخصائص التي اهتم بها الكتاب المشرقيون من قبل . غير ان الكتاب الفاطميين اختصوا بالمقدمات الطويلة

(١) الفلقتندي : ٢٩٤١١

(٢) رسالته في صبح الأعشى : ٧ ، ٥ ، ٦ - ضيف ، ١٨١

(٣) الفلقتندي : ١٦٥٨

(٤) السيوطي : ١٤٦٤٢ - ١٤٢

(٥) حسين - ٣١٦

التي كانوا يبدون بها رسائلهم وسجدهم ، ان دعوتهم عفدتهم الدينية ومذهبهم
الفاطمي ان يبدوا الرسائل والسجلات بالحمد لله ، ثم بالصلاة على النبي وعلى
الوصي والائمة من اهل البيت " . (١)

اما اشهر نائري هذه الفترة فابن ابي الشخبة (٢) الذي
قيل ان القاضي الفاضل استند من رسائلهم وحذا حذوه في الكتابة . ويلاحظ من
رسائله القليلة المحفوظة في معجم الادب " وجمهرة الاسلام المخطوط اعتماد " في نشره
على السجع والازدواج واعتناءه بالجناس التام والناقص بكثرة ، وتضمن الشعر في رسائله
واقتراساته عن القرآن واهتمامه بالتشخيص والاستعارة والتصوير ، فهو يقول في احدي
رسائله " وصلت رفعة مولاي والصبح قد سل على الاثني مقبضه ، وازال بأنوار
الغزاة فيعنه ، فكانت بشهادة الله صبح الآداب ونهارها ، وشار الهلابة وازهارها ،
قد توشحت بهروب من الفضل تقصر قاصية المدى ، ويجري به في مضمار الآداب
مفردا " .

فكان روض الحسن تفره الصبا فاطلت من قرطاسها الصفح (٣)

(١) حسين ٣١٤٤

(٢) الحسن بن محمد بن عبد الصمد بن ابي الشخبة ، العسقلاني . كتب في ديوان
الرسائل للمستنصر ، توفي ٤٨٢ هـ " ياقوت ١٥٢ " " ابن خلكان ١ ٣٦٤ "

(٣) ياقوت ١٥٧ ، ١

وفي أخرى يظهر براعته بالجناس بقوله " ونبه منه هوازن ، وظهرت مزينة ومازن ،
ضحك لعبس عابس الدهر ، وراحت للكلالة الكلمة كاملة الفخر ، وزادت مغالط الأزد
ونشرت قهيرا عن بلوغ المجد ، وأغمدت سيوف بني غامد ، وصارت همدان كالبحر
كالجمر الهامد (١).

ومن خصائص أسلوبه أيضا استعماله بعض الفاظ العلوم واللغة في

رسائله . وسار على نهج ابن أبي الشخبة في الشكر كتاب الدواوين الذين طووه كابن
الصيرفي (٢) وابن قادوس (٣) أحد أساتذة القاضي الفاضل الذي اعتنى كثيرا
بالطباق والجناس والتصوير والتشخيص والتورية والاستعارة والتشبيه وتضمن الشعر ،
وموفق الدين ابن الخلال (٤) الذي تدرب القاضي الفاضل على الكتابة الديوانية ببلد
بين يديه . وهو يعتني أيضا بالمحسنات اللفظية والمعنوية كثيرة من كتاب عصره وسابقيه
ويشخص المعاني ويضمن رسائله آي القرآن ، ومن نشره للتحنيل ، قوله في سبكه بتولية شاور :

(١) المصدر السابق ، ١٨٠ - ١٨١

(٢) علي بن منجب الصيرفي - اشتغل في الكتابة في ديوان الجيش والخراج ، وخدم
الحافظ "ابن ميسر و٩٧" ، الفلقسندى ٨ ، ٢٢٦ - ٢٢٧

(٣) كافي الكفا أبو الفتح ابن قنادوس . أحد كتاب الدواوين في العهد الفاطمي ،
توفي عام ٥٥٣ "ابن ميسر ٩٧" .

وللقاضي الفاضل نصيده في ديوانه في مدحه .

• وراقب الله فيما القاه اليك فقد قوض اليك مقاليد البسط والقبض ، والرفع والخفض
والولاية والعزل والقطع والوصل ، والتولية والتصريف والصرف ، والامضاء والوقف ، ^{والعطف} ^{واللفظ}
والتنبيه ، والاحمال والتنويه ، والاعزاز والاذلال • • (١)

يظهر لنا بعد هذا العرض السريع للنثر المصري انه متأثر بنثر
ابن العميد ومدرسته الى حد بعيد رانه مر في اطوار عديدة حتى وصل الى ما توصل
اليه من التعقيد والزخرف على يد ابن ابي الشخبا في العصر الفاطمي ، ولا يقتفي والقاضي
الفاضل في العصر الايوبي • اذ اعتنى الكتاب الاول بالسجع والمحسنات اللفظية
والمعنوية الا انهم لم يفرقوا فيها ، ولم يعتمدوها كليا في رسائلهم • وربما لو وصلنا عدد
اكبر من رسائل الفترة السابقة لابن ابي الشخبا لتكنا من الاطلاع على خصائص النثر
المصري بصورة أدق • وما وصلنا عن ابن ابن الشخبا يدل على تأثره بأصحاب ^{الكتاب} ^{الفاطمي} /
البيديع المشرقيين في التأنيق في الرسائل واعتماد المحسنات ، اما الكتاب المذين
تلوا ابن ابي الشخبا فلم يصلنا من نشرهم سوى قليل من سجلاتهم الرسمية التي لا تعطي
فكرة كافية لاصدار حكم على اسلوبهم • وهم على كل حال يقتفون اثر ابن ابي الشخبا
بزخرفة اسلوبهم •

(١) الفلقشندي ٢٨٠ : ٢١٦ و ٢١٧

نثر القاضي الفاضل

يتبين لنا مما تذكره بعض المصادر ان القاضي الفاضل ألف في ابواب عديدة في النثر ، وانتج عددا ضخما من الرسائل ، فهل ان ما جمع منها يزيد على الخمسين مجلدا (١) وان ما لم يجمع من مسوداتها لا يقل عن المائة مجلد . (٢) هذا عدا عن مذكراته السنوية التي سماها بالمتجددات ، وتعليقاته على المتجددات التي لم يصلنا منها سوى قطع قليلة حفظها المقرئ في خطه ، ومقاماته التي تفرد الصفدي بذكرها في كتابه نصره التأثير على المثل الماثر ، وقال انه اراد بها معارضة مقامات الحريري ووضعت ثلاث عشرة مقامة منها عارض كل فصل بعينه حتى جاء الى قول الحريري في المقامة الثالثة عشرة ، اعلموا يا ما آل الامل وشال الارامل اني من سرورات القبائل وسريات المعائل ولم يزل اهلي وبعلي يحلون المصدر ويحلون القلب ويحلون الظهر ويحلون اليد ، فلما اراد الدهر الاعضاء ، ونجح بالجوارح الاكباد ، وانقلب ظهر البطن نبالا ناظر وجفا الحاجب وذهبت العين وفقدت الراحة ولم يبق لنا تينة ولا ناب (فدا) غير العيش الأخضر وازهر المحبوب الاصفر اسود يومي الابيض وابيض يومي الاسود حتى رثي لي العبد والازرق فجنده الموت الاحمر . فقال القاضي الفاضل ، من اين يأتي للانسان بفضل يعارض هذا ثم انه قطع ما عمله من مقامات ولم يظهرها . (٣)

(١) لابن النويري : ٥٠٤ ، ٨

(٢) المقرئ : ٢ ، ٣٣٦

(٣) الغزولي : ٢ ، ١٢٢

أما ما وعلنا من رسائله فقليل جدا بالنسبة لما وصفه المؤرخون ، وحفظ بعضها في مجموعات لم تنشر بعد ، قام بجمعها ونسخها بعض الكتاب المتأخرين ، أمثال جمال الدين ابن نياته ^(١) الذي جمع بعض رسائل القاضي الفاضل في كتاب اسمه "الفاضل من كلام الفاضل" ، وموفق الدين الديباجي ^(٢) الذي نسخ بعض رسائله عن كتاب باسم "من ترسل القاضي الفاضل" ، ومحيي الدين ابن عبد الظاهر ^(٣) الذي نقل مجموعة باسم "الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم" ، وله مجموعة في مخطوط باسم "كتاب فيه من كلام الفاضل" نسخ بعد وفاته بحوالي تسعين عاما .

وحفظ وحفظ قسم آخر من رسائله في بعض كتب التاريخ التي استشهد بها مؤلفوها على بعض أحداث العصر ، أمثال أبي شامة في كتابه "الروضتين في أخبار الدولتين" ، النورية والصلاحية " وابن واصل في كتابه "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" ، وابن تغربردي في كتابه "النجوم الزاهرة" ، كما احتفظ مؤلفو بعض المصادر الأدبية بقسم من رسائله من بينهم القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى في صناعة الانشا" والتويري في كتابه "نهاية الأرب" وابن كثير في "البداية والنهاية" ، وابن خلكان في "وفيات الأعيان" والغزولي في "مطالع البدور" ، والمفدي في "الغيث" وغيرهم .

(١) محمد بن محمد بن الحسن ، ولد سنة ٦٨٦ هـ وعاش تسلمن حياته في الشام ، ثم

انتقل إلى مصر حيث توفي عام ٧٨٦ هـ . اشتهر برسائله وخطبه وشعره Brockleman, Ibn Nubala

(٢) من كتاب الانشا في آخر العهد الايوبي ، زمن الملك الكامل بن أيوب Ency of Islam, 2, 407

(٣) من كتاب الدواوين في مصر . اشتهر بترسله ، وتوفي عام ٦٩٢ هـ "الكتبي" / ٤٥١ .

وتنقسم رسائله الى فئتين ، رسائله الديوانية ، التي أصدرها عن ديوان الانشاء في آخر العهد الفاطمي والعهد الصلاحي ، والاخوانية التي كاتب بها اصدقاءه حتى وفاته .

رسائل القاضي الفاضل الديواني

١- العهد والسجلات

أصدر القاضي مجموعة من السجلات والعهود عن الحكام الفاطميين في آخر عهدهم ، وصلنا منها ههنا بتولية الوزارة لأشد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٤ هـ ، اضاف لهما الشيال عهدا ثالثا بتولية الكامل بن شاور نيابة الوزارة عن ابيه اثنا الحملة الصليبية الثالثة على مصر بقيادة عموري ارده . القلقسندى على انه لعوفق الدين ابن الخلال ، ونسبه الشيال الى الفاضل محتجا برأيه انه عندما حاصر الفرنج القاهرة وضايقوا اهلها وتغفروا مع شاور على تجه تعجيل مائة الف دينار لهم ، أرسل الخليفة العاضد القاضي الفاضل الى ابن الخلال ، وكان مريضا والفاضل ينوب عنه ، بتعيين الكامل بن شاور ، ونص على الفاضل الى ابن الخلال ورضى ما تقرر عليه ، ويؤكد الشيال ان كاتب هذا السجل القاضي الفاضل ، لا يلى لأن ابن الخلال كان مريضا حسب ما ورد في النص ، وان الفاضل كتب السجل بتعيين

اسد الدين شيركوه وزيراً بعد نصف شهر في ١٩ ربيع الأول عام ٥٦٤ هـ . (١) وهذا نستطيع ان ننسب الى الفاضل ثلاثة جهود بتولية الوزارة . وله جهود أخرى بتعيين ولاية لشعر الاسكندرية ، وقضاء لبعض المدن والشعور ، ووال للحسبة ، وياقظاع اراض الى احد الامراء ، واحد الوزراء . ووصلنا عنه في العهد الصلاحي منشور بتغيير السنة القبطية الى هلالية .

حافظت سجلات القاضي الفاضل على شكلها وصيغتها الرسمية المعده

لها زمن الفاطميين من حيث افتتاحها واختتامها . وحافظت على نقل المادة المطلوبة منها فيها . كما كشفت ضمن طياتها الرسمية عن جانب من سياسة الفاطميين الدينية والاجتماعية والسياسية . فهي بشكلها الرسمي وذكرها المتكرر للخليفة الفاطمي ونسبه وازافه بعض الصفات الخاصة له تدل على شيء من المعتقدات الفاطمية - وما كان يفرضه الخلفاء الفاطميون حول أنفسهم من عظمة وجلالة . وعلى مدى اهتمامهم بأمر الدعاة للفاطمية . كما تدل على أهمية مركز القضاء والحسبة ، ومعاملة الفاطميين لأهل الذمة واهتمامهم بأمر المساجد والفقهاء والعلماء والقراء والمؤذنين ، كما تكشف عن جانب من جوانب الحياة الاجتماعية انتشرت خلاله الفوضى في آخر عهد العاضد . فالرهايا ، كما يذكر القاضي الفاضل ، في سجله بتولية اسد الدين شيركوه وزارة الدولة المصرية - بحاجة الى الاستقرار والطمأنينة . بعدما عطف نالهم من اجحاف الجبايات واسراف الجبايات ، وتوالى عليهم من ضروب النكبات . (٢) زمن الوزير شاور .

(١) الشيال ، ١ ، ١٧٠

(٢) الفلغسندى ١٠٣ ، ٨٩ - ٩٠

وتشير في حالات عديدة الى بعض الاحداث المياسية كهبة اسد الدين شيركوه
لنصرة الخليفة الفاطمي ضد الفرنج وشاور ، ومن مجيئه فلك المتكرر الى البلاد وخلافه
مع شاور ، حيث يقول " واجليت طافيه الكفر وسواك اجتذبه ، وصدفت الله سبحانه
حين داهنه من لا بصيره له وكذبه ، واندمت على الصليب وجمراته متوقدة وقاتلت
اولياء الشيطان وغمراته متوردة ، وما يوك في نصرة الدولة بواحد ، ولا امك محمود
دابة رزم اند الجاحد ، بل ارجيت الحق بهجرة بعد هجرة ، واجيت دعوه الدين
قائما بها في غمرة بعد غمرة " . (١) ويذكر فيها ايضا اشارات الى ظلم شاور
الذي " تبادى في ضلالتة ، واستمر على استتالته ، واجتاح للدولة رجالا ، وضيق
من ارزاقهم مجالا ، وسلب من خزائنها ذخائر واسلحة واموالا ، ونقلها من ايدي
املاك اوليائها الى اعداء الله " . (٢) ولا يخلو سجله لصالح الدين من اشارة
الى الحالة الضطرية في الجيش المصري حين اصبح يتنازع الزعامة فيه عنصران ،
المغربي ، اولياء الدولة القدامى ، والشرقي جنود صلاح الدين " . (٣) حين يقول
الفاضل لصالح الدين " اولياء امير المؤمنين ، وانصاره الميامين ، ومن يحف بنظام
ملكه من الامراء المطوقين والاعيان المعصبين ، والامثال والاجناد اجمعين ، فهم
اولياءه حقا ومعاينهم رقا ، والذين تهووا الدار والايام سبعا ، وانصاره قريبا ، كما
ان عسكرك انصاره شرقا ، فهم وهم يد في الطاعة على من ناداهم ، يسعى بذمتهم
ادناهم ، وتحكم فيهم وانت عند امير المؤمنين اعلامهم " (٤)

(١) الفقهندي / ٨٤ ، ١٠ هـ ٨٥

(٢) المصدر نفسه ٨٥ هـ

(٣) الشيال ، ١٧٦

(٤) الفقهندي ٩٦ ، ١٠ هـ

٢- الرسائل التاريخية

وسجل جزئاً خاصاً بتاريخ عصره في مجموعة من الرسائل أصدر
نفساً عن ديوان الانشاء زمن العاقد عندما كان موظفاً في ديوان الانشاء ، ونسباً
آخر زمن صلاح الدين حينما أصبح احد رجال الدولة الرسميين المطلعين على
دقائق الموقف السياسي والاجتماعي والاقتصادي في البلاد ، والمستولين عن نقل
الموقف وشرحه بدقائقة الى السلطان وذوى الشأن في البلاد الاسلامية . ونسباً
ثالثاً زمن العزيز عثمان . فكان يسجل كل ما يقع له في البلاد بطريق رسميه عن
ديوان الانشاء ، وبطريقة ودية خلال رسائله الاخوانية الى اصدقائه . نقدم لنا
بذلك صورة حقيقية عما كان يجري في البلاد ، أول ما وصلنا عنها شرح الموقف بين
العرب والفرنج في آخر عهد شاور ، وتخلف بعض القبائل العربية " بنى جعفر
وطلمجة " عن المشاركة في الجهاد واطهارهم الشغب . ثم الخلاف بين شاور
وأسد الدين شيركوه ومسرراً الى الصعيد . وما قام به صلاح الدين من
اصلاحات اولها اعلان الخطبة للعباسيين وفتوحات بعد توليه الحكم في مصر كفتح
اليمن وبعض بلدان المغرب ، وشرح الموقف السياسي الداخلي المضطرب في السبلاد
الناجم عن ثورة بعض الفئات على العهد الجديد كثورة كثر الدولة وبعض الشيعة
والقضاة عليها . ثم انتقل مع صلاح الدين الى الشام ليسجل له كل ما كان يقوم به
من فتوحات داخل سوريا برسائل الى الخليفة ببغداد وإلى بعض الأمراء المسلمين

ثم انتقل الى مصر ليواكب ما كان يجرى فيها ، وفي الشام بين العادل والفرنسج
مسجلا بذلك بطريق غير رسمية الى صديقه العماد .

وتطرق في بعض رسائله الى وصف الحالة الاجتماعية والاقتصادية في
البلاد في العصر الصلاحي عهد العزيز عثمان .

وتقع معظم رسائله التاريخية هذه في الفترة الواقعة بين عام ٥٦٤ - ٥٦٦ هـ
كتب القسم الأكبر منها بين عام ٥٦٤ و ٥٨٩ هـ اي في عهد صلاح الدين .

٣- الرسائل الأخوانية

تعرف القاضي الفاضل بحكم عمله ومنزله الى عدد كبير من وجهاء الدولة
وكبارها ، من حكام وأمرأ وفنما وأدبا وعلما ، كان يصلهم بمكاتباته في مختلف المناسبات
السعيدة ويعزى حين تلزم التعزية ويتشوق الى اصدقائه المقربين ويعاتبهم حين يتأخرون
بالاجابة على رسائله اليهم ، مضيقا بذلك مجموعة من الرسائل الأخوانية الى أدبه .
خص السلطان صلاح الدين وصديقه العماد الاصفهاني بقسم كبير منها احتفظت
له المصادر بأكثرها ، ومن بينها عدد كبير في رسائل التهنئة الى صلاح الدين بمولوده
الثاني عشره ومولود لابنه العزيز عثمان ، وبإبلاله من مرض ألم به ، وبساعه موطا زين ماله
في الاسكندرية ، وبحلول احد الاغنياء ، ومجموعة أخرى في التعزية كتبها الى اشخاص

من بينها رسالة الى الملك الصالح ابن نور الدين ، وإلى القاضي شرف الدين أبي بن أبي مصر ، وفي وفاة السلطان نور الدين زنكي ، وإلى السلطان صلاح الدين في أحد أولاده ، وإلى الظاهر غازي ملك حلب في وفاة صلاح الدين وإلى العادل في ابن له ، وفي العزيز عثمان ملك مصر ، وإلى بردويل ملك القدس بوالده ، وفي مؤيد الدولة ابن منقذ ، وحفظت له المصادر ومجموعات رسائله بعض رسائل التعزية لم يرد فيها اسم المعزى ولا المعزى به . وقد وصلتنا مجموعة كبيرة من رسائله في التشق والعتاب وجه معظمها إلى صلاح الدين الأيوبي ، والعماد الأصفهاني ، وابن سناء الملك ، كما وصلتنا مقتطفات من رسائل اخوانية في موضوعات مختلفة ، في الكحالين ، وفي الزكاة وفوائدها ، وفي استعمال الحمام للبريد . ورسالة مستقلة في وصف دمشق .

طريقة القاضي الفاضل الانشائية

رأينا القاضي الفاضل يبحث في فترة موضوعين مختلفين ، أحدهما الديواني ، يعتمد على الوصف الخارجي وتسجيل بعض الأحداث والفرائع ، ووصف المعارك ، يحتاج إلى الكثير من دقة الكاتب ولغافته ^{وباقته} ومقدرته على التفاعل بهذه الأحداث والحس بها وتفسيرها ونقد ها . ليتمكن من اظهارها بمظهر يوحى بقيمتها بالنسبة للعامة والنسبة له ، والثاني الأخواني ، وهو عبارة عن تنقيسات تابعة من أعماق الكاتب ليس لها علاقة خارجية بأي شيء آخر ، محورها تبادل العواطف والمشاعر بين الكاتب وقبيله من الأصدقاء ، يعبر فيها الكاتب عن مشاعره بصدق وإخلاص مرسل نفسه على سجيته ،

دون تكلف أو تصنع ، ودون تفكير بالعبارات المنقفة والصور المزخرفة . لكن هل نجح
القاضي الفاضل في إبراز قيمة هذين الموضوعين ؟ لا اعتقد ذلك ، لأنه عاملهما
معاملة متساوية من حيث الأسلوب ناسيا مادتهما وناسيا في الوقت ذاته نفسه
ودورها في عمله الأدبي في كل منهما . فكان في رسائله التاريخية أسلوبيا إلى حد
بعميد بحيث جعل القن يطفئ على التاريخ ويفقد الكسور من قيمته ، ومن الدقة
فيه إحدى أسس كتابته فضح بها في بعض الأحيان في ثنايا تجميل العبارة
وأخراجها بشكل متائق وأنقد باهنامة الشديد بالأسلوب قيمة بعض الفتح التي
كان لها معنى كبيرا بالنسبة له ولغيره ، ولم ينقلها ببساطة وسهولة يعف روعتها
وقيمتها ليضيف إلى ^{قيمتها} فيها كشاهد عيان ، وقويتها لصدورها عنه ، نسي قيمة دورها ^{كل} في كل
هذا وأهتني بالصور العديدة والتشابه والكلمات الطنانة التي طغى على السطش الهامة
الموجودة في أغلب رسائله وجعلتها متصنعة متكلفة . وها هي رسالته في فتح القدس ،
ذلك الفتح الذي طالما انتظره المسلمون وطالما تناء القاضي الفاضل ، حيث كان يجبان بصورة
ويبرز روعته وقيمته وأفعاله هو فيه ، يكتبها بأسلوب منق لا يستطيع كل شخص من
فهمها وتحليل صورها ، كقوله في أحد فصولها " وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله
بالعدو الذي تشظت قناته شققا ، وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه ^{سيفه} نصار عما عودعت
حصانه وكانت الأكثر عددا وحصا ، فكلت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان
عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان ، وفقت عينه وكان عيون السيوف دونها كسيفه ،
ونام جفن سيفه وكانت يفظته تريق لظف الكرى من الجنون ، وجدعت انفخ انوف رماحه

وطالما كانت شامخة بالمنى اوراعفة بالسون وندم المنجنقات التي تنزل
عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوترهم نسيها التي تضرب فلا تفرها سهامها
في ثنايا شرفاتها سراك ، وندم النصر نسا من المنجنق يخلد اخلاقه الى الأرض
ويعلو علوه الى السماك نشج مرادع ابراحها ، واسمع صوت عجيجها ، ورفع
شارعاجها . . (١)

ولعله ظن انه يستطيع ان يؤثر على قراء رسائله وسامعيه بقدرته
الفنية واجادته ايراد الصور العديدة المتلاحقة ، لكنه اخطأ . وليته عامل رسائله
التاريخية هذه معاطته لمتجدداته او مذكراته السنوية ومياوماته التي كتبها
باسلوب بسيط منفسا فيها عن تأثره بها ، وموردا بها صورا حقيقية شاهدها ،
بطريقة لطيفة تجعل القارئ يشارك رؤياها وينفعل معه فيها حيث لا تكلف هناك ولا
تضعف ، بل كتابة أقرب الى السهولة والفهم والدوق . ولعله كتبها بهذه الطريقة
علما بأنه يحتفظ بها لنفسه لا ليقرأها حكام العصر وادباؤه ويحاسبونه على اسلوبه فيها .
وأغفل القاضي الفاضل قيمة موضوع اخروانياته وكتبها باسلوب لا يختلف عن
اسلوب الرسائل الديوانية ، وهو وان كان له عذر في كتابتها في هذا الاسلوب ، فهو
عدم مسؤوليته تجاه قرائه من ناحية الدقة التي كانت تتطلبها الكتابة التاريخية ، فهو
ان هذا لا يعني انه نجح كثيرا في كتابة رسائله بهذه الطريقة فقد نسي مشاعره الحقيقية

(١) القلشندي ٥٠٦ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦

يل تناسها في غالب الأحيان عند ما لجأ إلى التهميل والتكثير والاطناب وادخال
الشعر والاشارات المختلفة في رسائله ، ونسي علاقته الشخصية بأصدقائه
الذين كان يخاطبهم ، وضرورة ظهورها على حقيقتها لتنتقل مشاعره إلى أصدقائه
فيشاركهم أياها . أفقل كل هذا وأفقد معظم رسائله هذه سمة الصدق والعاطفة
والروح قوام الكتابة الأخوانية . فاسمعه يصف مشاعره عند ما استلم كتابا من العماد
يقول فيه : ولما وقف عليه العبد خر كما خر موسى صعبا ، وخلفه بدم من دمع
شوقه وخليق أن يكون ما (. . .) عن تلك اليد غلغا مغلغا ، واستعاد من العاصف
الدهر ساعة وصل الكتاب ساعة زهول عن الاكتئاب ، وحلت لي الخمر وكنت أمرا ،
وقضت له أمنية أقي العلا فجهل كيف اطمأنت ، إلا أنه رأى ما لم ير وهو مغاني
اللوى من شخصك اليوم اطلال ، ثم عادت الخواطر الخواطل ، واستفجرت الأجفان
المواطر لا المواطل ، وقالت هل الكتاب إلا شجرة ذكر اقتطفتها من الورق ، وخیال
حبيب أفرى بك الأرق ، ولولم يكن طيفا لما زارك في ليل مداره ، ولا زاد قلبك
وادمى أنه من عواده . (١) والأمثلة على هذه المبالغات والمشاعر المخفية في
غلاف التصنع هذا عديدة .

ومع هذا فقد تقبل العصر أسلوبه البديعي هذا واعترف له بفضل السبق
فيه ومدحه الجميع وعلى رأسهم صلاح الدين ولعلهم رأوا في أسلوبه في تلك الفترة
ذروة الكتابة الفنية ، إلا أنهم كانوا متأثرين إلى حد بعيد بالبيئة .

(١) الفاضل من كلام الفاضل ، ٣٢ - ٣٣

خصائص أسلوبه

١ - البديع

أ - المحسنات اللفظية

اتخذ القاضي الفاضل البديع مذهبا في كتابته ، وأكثر من استعمال
المحسنات اللفظية والمعنوية والاشارات والانتباسات والتضمينات التي أرق بها رسائله
وأبعدها عن ذوق قارئها ، " في عصرنا الحاضر خاصة " وجعل فهمها متوقفا
على جملة من المثقفين .

واتخذ من السجع اطارا عاما لرسائله نوع فيه وتفنن في استعماله
بين مرصع ومزدج ومتوازي ، وطويل ، وقصير ، حافظ فيه في أغلب الحالات
على الوزن والموسيقى والقافية مظهرا براعة في استعماله . فمن سجعه القصير المرصع
قوله " رحيق النوا " وقطبه ، وروح جسد الاجلال ، وقلبه ، وحلى معصم الصفا " وقلبه ،
أدام الله جماله ، وضاعف جلاله ، وحرس من الغير ظلاله ، وبلغه سؤاله وآماله ،
وأحسن منقلبه وعقابه وآله ، ولا زالت اوفاته متروكة بالحبور ، وساعاته مصروفة
بالسرور " (١) ومن سجعه الطويل قوله " وصلني كتاب فظلت من حالتيه
بين حالين من احوال الجنة ، ظل من خطه ممدود وما من لفظه مسكوب ،

(١) الدر القظيم من ترسل عبد الرحيم " مخطوط مصور " ورقة ١

وبين حالين من احوال أهل النار ، وعذاب شوق غالب وعزم مغلوب ، فسبحان من جعل
آراءه في الكلمات مصابيح ، وفي المشكلات مفاتيح ، ويداه اذا امتطت الاقلام بارت
الغفر الغمام ، واذا انتشحت بالاعنة بارت الريح . (١)

وأظهر اعتنا شديدا بالجناس فبعثه في معظم رسائله واستعمله تاما
ونافعا ومشتقا ^{مظهرا} واضلا فيه الى درجة من التكلف في بعض الأحيان كقوله :
" لا زال سائغ (٢) العطاء ، سائغ (٣) الغطاء ، ظاهر الجلال ، ظاهر الخلال ،
وسيع المجال ، وشيع (٤) الحال (٥) ، مكبوت الأعداء ، مكتوب الأعداء (٦) ، يحصل
الاسلام منه بالسهم النافذ النصور والشهم الناقد البصير " (٧) حيث جافى
مجانسة تصحيف وأظهر كلمات كل سجعتين بمظهر واحد ^{مجد} اذا ما جردت من
نقاطها (٨) وقوله في رسالة أخرى حيث جمع بين الجناس النافع والمشتق : " ولا
زالت اوقاته مقرونة بالسرور وساعاته مصروفة بالحبور ، شوق المحائم (٩) الولهان الى
لذيذ الرمال ، والمحائم (٩) العطشان الى الماء الزلال ، وحنيني اليه حنين الابل
الى اعطائها (١٠) ، والغرباء الى اوطانها ، وكفني به كلف الساهر الحائر الى تبليج وجه الصباح ،

-
- (١) المصدر السابق ، ١٠
 - (٢) من فعل سوغ ، السائغ العذب
 - (٣) من فعل سيع ، أي كامل وأف
 - (٤) من فعل وشيع ، وشيع الثوب أي رقه يعلم ونحوه
 - (٥) منجنون يستقن عليها
 - (٦) النصرة والمعونة
 - (٧) من ترسل القاضي الفاضل ، مخطوط مصور ، ورقة ٢٧
 - (٨) من فعل هوم ، الذهاب على وجهه
 - (٩) من فعل يدور حول الماء بسبب عطشه ، ولا يجد ماء
 - (١٠) مبرك الابل حول الحوض ، والعطن بالنسبة للجمل كالوطن للناس .

والكلف بحميا الراح الى ارتشاف ثغور الأنداح ، بل كشوقه الى اعتلاق المعالي
واعتنافها ، واصطباج كاسات المكايمة واعتناقها ، وكيف لا أذوب شوقا اليه وحنّة عليه
وقد فارت منه الطائر الميمون الذي لم أزل أقابل منه كل يوم طائر اليمن والأقبال
والوجه الكريم الذي يجمع بين الجمال والاجمال * (١) فجانس جناسا مطروفا بين
الهائم والحائم ، واعطان وأودان ، واعتناق واعتناق واعتلاق * وجناسا مذيلا بين
الجمال والاجمال ، وجناسا اشتقاقى بين اليمن والايمان *

ومن انواع الجناس الأخرى التي استعملها في نشره ، الجناس المركب
كقوله * والشرق يهتدى بأنواره ، بل ان ابدى نورا من ذاته هتف به الغرب بأن
واره * (٢) حيث جانس بين كلمة انواره جمع المصدر " نور " وبين ان واره ،
الفعل ، بمعنى أخفه ، وقوله في أخرى ، فعدل الى منجنيقه التي أمل صاحبها
منها منجانيقه * حيث جانس بين كلمة منجنيق ، احدى الآلات الحربية ،
ومنجانيق (٣) * والجناس المعكوس كقوله * مع من انضم اليهم من الناف والطراف
وأوشاب وأوياش * (٤) حيث جانس بين أوياش وأوشاب *

(١) الدر النظيم ، ورقة ١٢

(٢) أبوشامة ، ٢٠٥٢

(٣) النيق أرفع موضع في الجبل

(٤) القلقشندى ، ٥٠٧٦

ولم يكتب القاضي الفاضل في نشره بالسجع والجناس، وكأنه أراد أن تكون كل رسالة من رسائله قطعة مستقلة من الزخارف والتشبيات التي راح يستند بها من ثقافته الدينية والأدبية والتاريخية ويحشرها في رسائله حشرا بحيث يرى القارئ لمعظمها مجموعة من آيات القرآن المضمنة هنا وهناك، ومن الفاظه ومعانيه المنتشرة في مواضع عديدة من رسائله، وأبياتا عديدة من الشعر المنظوم والمنثور، بعضه من نظمه وبعضه مقتبس عن غيره من الشعراء، وبعض الفاظ العلوم واللغة. كما يلاحظ كثرة الإشارات إلى أسماء أنبياء وأشخاص ومعارك وأحداث حصلت في الإسلام.

ومن أمثلة تضمينه للقرآن قوله في إحدى رسائله * ولقد ذكرنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون * سلام قولا من رب رحيم * فروح يوحنا وجنه نعم * وصلاة يتبعها تسليم، وكأس يمزجها تسنيم، وذكر من الله سبحانه * (١) حيث تدرج من القرآن إلى ما يريد نشره محافظا على وزن القرآن الذي بدأ به. ومن إشارات إلى بعض الفاظ القرآن قوله * سعد لا يصوح عنه المرتع الأخضر، وأمن لا يحزنه الفزع الأكبر، مطاع ينقاد بتصرفه الأبيض والأسمر، محبوب القلم حتى لو عاداه السيف لفيل أن شاتك هو الأبتى * (٢) تصرف بألفاظ القرآن بقوله * أن شاتك هو الأبتى * والحاجة وإشارات إلى معاني القرآن عديدة كقوله * وصل الكتاب الشريف فأدرك به غايه الحرم وكان كيمقوب إذا بشر بالقمي، ووقف له عليه ولم ما تضمنه وأشار إليه * (٣).

(١) المصدر السابق، ٥٠٨٦٦

(٢) كتاب فيه من كلام الفاضل، ١٨٩

(٣) الدر النظيم، ٢٢٥ ورقة ٢٠

ومن اشاراته الى الفاظ اللغة قوله * فالله يعيد ليالي كانت بقره

اسحارا بل نهارا ، واياما بقيت في خدمته مواسم بل أعيادا كبارا ، وان تسمح
الأيام بذلك فربما هسى وطن يدنو بهم ولعلما ، وأرجو ان يكون ذلك قريبا * (١)
وقوله * والله يفتح من بلاد الكفر كل مبني على الضم * . والى بعض المصطلحات
في اللغوية قوله * وكيف لا يكون ذلك وقد فارق العالم المجمع في واحد ، والمجد المنتظم
في شاهد ، وبنيان الكرم المستقل بشائد ، والمنفوس كالأسف لا يتم الا بصلة واحدة * (٢)

والى بعض التعابير البلاغية قوله * وانكرت كثيرا ما كنت اعرفه مني
ومن الناس ، وتناوبت علي النوائب من مجنن ومطهر ، فلا تسلم عن سواد في القلب
وبياض في الرأس * . (٣) والى بعض غزوات المسلمين قوله * ولكن اشيرة الى انه
مكان الغزاة ومقرها ، ومستودع الفريضة ومستقرها ، ومجاورته لتبوك وخزائنها آخر الغزوات
النبوية ، والى طريقه انتهت الخطى الحميدة المحمدية * . (٤) ومن اشارات الى احداث
واسم وردت في الأخبار والقصص الديني قوله عن أسرى المسلمين * وكانوا في سجون اهل
الخلافة الثلاثية كيونس في الظلمات الثلاث ، وكيوسف الا انهم في عقله فضب الذكور
لا في عقله طرب الاناث ، وعلى فوهه الجب شقه باب لا يأذن الليل في ابتسامتها
عن نهار * . ويقول فيها ايضا * فما طال جناح الجنح ، واستنار مصباح الصبح الا

(١) المصدر السابق ، ١٢

(٢) من ترسل القاضي الفاضل ، ٥٥ - ٥٦

(٣) كتاب فيه من كلام الفاضل ، ٢٦٣ - ٢٦٤

(٤) الفاضل من كلام الفاضل ، غير مرقم

والربوبية قد اجارتهم من الديوية ، وبياض يد الليلة يخبران العانوية . (١) اشار
في قطعته هذه الى النبيين يوسف ويونس ، والى العانوية احدى الديانات
الفارسية . ومن الخدعة اشاراته الى بعض ادباء العرب قوله وراى ما لو انشدة
ابن حجر لمار به كالحجر ، وما لو فقس بين قس لعلم انه ما بعث أمة واحدة
الا انه حجل واستتر ، ولا لوم عليه لو سمع ونظر " ، فاشار الى امرى القيس
الشاعر الجاهلي وقس بن ساعدة الخطيب الجاهلي ايضا .

وقد جره ولعه بالشعر لان يدخله بكثرة في نشره بحيث يطفئ في بعض
الحالات على الصورة النثرية للكتابة ، كما وصل به تكلفه في استعماله ان انشأ رسائل
على أبيات من الشعر مضافه الى قريئة من النثر ، وانصاف أبيات من الشعر مضافه الى
قريئتها في النثر ، وكان يركب احيانا قريئة كاملة من النثر على بيت او نصف بيت من الشعر .
فمن امثله تضمينه الشعر في نشره قوله في ثلاثة كتب وصلتته من العماد
" فلله درها ثم لأوليائها درها ثم لاعدائها دروها ، لقد أثرت فنشرت في القرطاس
جواهر مددت اليها يد الالتقاط وترينت عيني في اوسع من عدرها وتركت خاطري
في اضيئ من سم الخياط ؛

واخذت اطراف الكلام فلم تدع فولا يقال ولا فريبا يدعى

فهني بين فوص وترق ، هذا يثير الدر وهذا يثير الدار ، وهذا يتبلج في عين
السوار المصوفة وهذا يتبرج لآعين السواري ، وذكرني هذه الكتب ثلاثة ابي تمام ان يقول ؛

(١) المصدر السابق ١٤

بثلثة كتلته الراح استوى لك لونها ومذاقها وشمها
وثلثة الدلو استجيد "الماتح" اعرادها ورشاها وأديها (١)

ومن تضمينه البيت من الشعر لقريته من الشرق قوله :
لقريته

وصل من الحضرة

كتاب به ما الحياة ونفعه ال حيا فكأنني إذ ظفرت به الخضر

فوقفت منه على

عقود هي الدر الذي انت بحره وذلك ما لا يدعي مثله البحر

ورفعت فيه في

رياض يد تجني ومن وخاطر تسابق فيها النور والزهر والشعر

وكرعت منه في حياض

تسر مجانيها اذا ما جنى الظما وتروى مجاريها اذا بخل القطر (٢) ... الخ

ومثل تضمينه انصاف أبيات من الشعر قوله :

وعمل كتاب مولاى بعدما اجاب المنادى للملاة فأعنا

فلما استقر لسدى تجلى الذى من جانب البدر أظلم

فقراته بعين اذا استنطرتها امطرت دما

وسالته فسالته مصروفا على النطق أعجا

(١) من ترسل القاضي الفاضل ، ٥١ - ٥٢

(٢) القلقشندي : ١ ، ٢٧٦ - ٢٧٧

ولم يرد جوابا وماذا عليه لو أجاب المتسما
وردت قراءته فعوجلت دون الحلم ان اتحلما
وحفظته كما يحفظ الحر الحديث الحكما (١) . الخ

حاول في رسالته هذه ان يعارض رسالة ليديع الزمان الهمداني .

ومثال لتكوينه قونية كاملة من الشعر على بيت ٤ او نصف بيت من الشعر قوله :

ورد كتاب الحضرة بعد ان عدت {
الليالي ليلة بعد ليلة لطلوع الصديق {
وقد عشت دهرها لا اعد الليالي

وبعد ان انتظرت الفيض والشتاء {
لفصل ربيع {
فلما للنوى ترمي بليالي مراميا ؟

واستروحت الى نسيم سحره اذا الصيف القى في الديار المراسيا
ومدت يدي لاقتطاف ثمره فله ما أحلى وأحسن المجانيا (٢)

وكتابة رسائل اخوانية بهذه الطريقة تدل على الكثير من التكلف والتصنع .

وأظهر ميلا الى الاطناب في معظم رسائله ، فهو يتحدث ويكرر ويدور
حول نفسه كثيرا ، فتأتي بعض رسائله قننة باردة تحمل الفاظا عديدة وجملا كثيرة
لتدل على معنى بسيط ، فاسمه يقول في إحدى رسائله الى العماد مخرجا باستلامه

(١) المصدر السابق ، ٢٢٢ - ٢٢٨

(٢) المصدر نفسه ، ٢٢٩

كتاباته : " قدم على الملوك من الديوان كتاب شريف اضافت الخواطر لمقدمه ، وصارت سما بانجيه وكانت كنانة لما اشتملت عليه من اسمه ، وترقى اسطره و درجات فقال اسباب السعاه بسلمه ، وتوضحت جادة التوفيق بمعلمه وخطرني السعادة بمعلمه ومنت وجوه السيوف اجلالا لقلعه وتلاه فكاننا تلا منزلا او مشافهة فكانه شانه مرصلا ، وورده فكاننا ورد منهلا ، وتقلده فكاننا تقلد منصلا . الخ (١)

وأما المظاهر البارزة في بنا جملة فنصله بين المبتدأ والخبر بجمل عديدة كقوله مثلا " سبب اصدار هذه الخدمة ادام الله نعمه المجلس وضاعف جلاله ، وقرن بالنجح آماله ، وراود بالفتح اقباله ، وأسبع بدوام النصر ونفاز القدر ظلاله . ولا زالت قطوف النصر لعزيماته جانبية ، وصروف الدهر ببقا أيامه فانية ، وأود أثروه بنعمته غانية ، تجد يد صباية صباية شوق متضاعف " . (٢) حيث فصل بين المبتدأ في الجملة (سبب) وخبرها (تجديد) بعد جملة استعمل فيها صيغتين فسي الحديث . ونصله في جملة عديدة بين الفعل والفاعل ، او الفاعل والمفعول به كقوله : " ورد ادام الله ورود المسار والبار على المجلس السامي ، وأعزبه الاسلام ، وجعل به الايام ، وأغنى بعلاماته عن الأعلام عورقه سيوف الممالك التي يدبرها بما في يده من الأعلام ، (وجعل) رحله وآمن سبله ، وأعلى محله ، ووصل حبله وسربلقائه اولياءه وأهله ، كتاباه الكرمان " . (٣) فصل بين الفعل (ورد) وفاعله كتاباه بجمل عديدة .

(١) كتاب فيه من كلام الفاضل ١٥٧ - ١٥٨

(٢) الدر النظيم ٢٢٤ ورقة ١٨ - ١٩

(٣) كتاب فيه من كلام الفاضل ، ورقة ٥٣

ومن مظاهر بناء جملة ايضا الالتفات وتنويع صيغة الحديث عند ما يتطلب منه الموقف ذلك ، وكان هذا اكثر ما يقع في رسائله التاريخية ، ففي رسالة لحصار الفرنج مدينة عكا عام ٥٨٥ هـ بدأ بشرح الوضع في البلاد وقوة الفرنج واسمائتهم في الحرب في صيغة الماضي ثم راج يتضرع الى الله ان يخفف من شرهم بقوله : اللهم اخفر جواره ، واعرف جورره ، واخلف وعدّه ، واكسر ضمانه ، وانكسر على عقبه ، وهجل في الدنيا والآخرة منهم تهابه ، وما بدأتنا من نعمتك فلا تقطعه ، وما وهبتنا من نصرك فلا تسلبه ، وما سترته من عجزنا فلا تهتكه ، ثم يعرض يقول للخليفة وفي دون ما الدين الاموال : ويوجب لامام هذه الامة ان يحفظ عليها قبلتها ، وينزع في قتل عدوها علتها ، ولولا ان في التصريح ما يعود على عدائه بالتجريح ، لقال ما يبكي العين وينكي القلوب وتنشق له المرائر ، وتنشق له الجيوب . . . ثم ينتقل ليقول " فيا عصية محمد صلى الله عليه وسلم ، اخلفه في امته بما تطمئن اليه مضاجعة ، ووقع الحق نينا ، فاننا وان المسلمين عندك ودائعهم - وما مثل الخادم نفسه في هذا القول الا بحالة من وقف بالباب ضارعا ، وناجي بالقول ~~محذوف~~ صادعا " . (١)

بدأ حديثه في هذه الرسالة بصيغة الماضي ثم أخذ يدعو ، ثم عاد الى صيغة الماضي ، ورجع ليطلب من الخليفة ببغداد المساعدة بصيغة أخرى .

(١) القلشندى ٧ ، ١٢٦ - ١٣٠

ورد العجز على الصدر كقوله في إحدى المناسبات : " ولم أزل اتجلد
الى ان دفعتني التجلد الى التبلد ، وادافع الأوقات الى ان دفعتني ، وأفسد القلب
الضرورات الى ان قلبتني ، فلو نظرت الأمر من أوله فعلت ما فعلت في آخره " (١)
وتكرير بعض الألفاظ مراراً متعديداً في الجملة ذاتها كقوله في إحدى رسائله " فقد أنفق
المولى مال مصر في فتح الشام ، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة ، وأنفق مال الجميع
في فتح الساحل ، وينفق ان شاء الله مال القسطنطينية في فتح رومية ، والملوك كلهم
وكلاً ، وأمناءاً ، وعلو خزائنهم الى ان يسلموها اليه " (٢)

٢- المحسنات المعنوية

واعتنى بمعانيه اعتناءً باللفاظ حتى اعترف له بعض الأدباء بالقدرة
على ابرازها بشكل جميل ، كالقنشى في قوله " ومعاني القاضي الفاضل هي التي ترقص
لها القلوب ، وتطرب لها الألباب ، ويهجم قبولها على النفوس من غير حاجب ولا يواب " (٣)
وحاول ان يجعلها ما استطاع بالمحسنات فلجأ في أحيان كثيرة الى الطباق والتدوير
والمقابلة والتورية ، وكان يطابق أحياناً بين كلمات ويقابل أحياناً أخرى بين الجمل في ضمن
طباقاته قوله " فأعددهم وأقامك ، وكسلهم ونشطك ، وقبضهم وبسطك ، وحبب الدنيا
اليهم وبغضها اليك ، وصعبها عليهم وهرنها عليك ، وأمسك ايديهم وأطلق يدك ،

(١) اللغات الخ لبيّن حياته كتاب فيه من كلام الفاضل ، ١٠٢

(٢) أبوشامة : ١٧٢ ، ٢

(٣) القنشى : ١٨٩ ، ٢

وأفند سيوفهم وجرد سيفك ، واشفاهم وأنعم عليك ، وثبطهم ^{وهم} وسرك * . (١)
ومنها أيضا قوله * ولم يؤخر فتح البلاد إلا أن فزع الكفار بالشام استصرخ بأهل
الكفار من الغرب فأجابوهم رجالا وفرسانا وشيئا وشباناء وزيارات وكلا^لاد ووحداناء
وبرا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وركبوا اليهم سهلا ووعرا * . (٢) ومثل من تورياته
العديدة قوله * أصدر الخادم هذه الخدمة من ثغر عكا وقد علا تبسم لقدومنا
فأمنح ليل الكثر عن جانبيه * . (٣) حيث وارى في كلمة ثغر حين استعمالها بمعنى
الثغرى المدينة المتطرفة الموقع ، والثغر بمعنى الفم .

الصور البيانية

واحتشدت بعض رسائله * التاريخية بشكل خاص * بالصور والتشبيه
والاستعارات والمجازات والمعاني الشخصية التي كان يجيد فيها ويسواحيانا وينحدر
حينما يحاول أن يعقدها بشكل يصل إلى حد المبالغة ويصعب معه تحليلها إلا
بأعمال فكر شديد . وها هو في إحدى رسائله ، يحاول أن يصف الطبيعة فيخفق إلى
حد ما مع أن المجال للإبداع أمامه واسع ، لماذا ؟ لأنه اهتم بالشكل قبل كل
شيء ، وبايراد صور متلاحقة متتابعة وممسان معقدة فيقول من " بعين " (٤)

(١) ابوشامة ٢ : ١٦٦ - ١٦٧

(٢) المصدر نفسه ٢٣٣

(٣) الفاضل من كلام الفاضل ، الصفحة غير مرقمة

(٤) حصن في سوريا ، سار إليها مع صلاح الدين عام ٥٧٠ هـ لفتحها ، ابوشامة ١ : ٢٥٠ ، *

• حيث أخرجت السماء أنفالتها ، وفتحت من عزاليها أفعالها ، وركعت خيل
الرعد لابساً من الغيم جلالها ،^(١) وثوب الليل بالغمام فسيل ، وشبح الظلام
بسيف البرق قتيل ، وغراب الألق باز ، إلا أنه في فوس فزح ناز ،^(٢) وكان
عقارب الظلمة بالثلج أناعي ، قليل قرضها ليل السلام^(٣) وكان مواقع الرعد
قد فعاقيع ،^(٤) وحلى الغواني في يده ، فهو لا ينام ولا ينم • وكان السباح
قد ذاب في الليل قطراً ، وقد ابتل جناح الليل الغدق^(٥) فما يطير ، وأبطأ
حمام الصبح خلاف ما فحاء نوح في رسالته نوح فما يسير • • ويقول " فأما الخيام
التي انضجت جلودها • • • الشمس ، واسودت ثم نضجت^(٦) بدموع الغمام
فتراخت أجفانها ، وبعد ما اشتدت ، فما هي إلا أعين سال منها بالدموع كحلها ،
وخيلول وهم ظل من الأطناب شكلها^(٧) ولا يزال الخصام بينها وبين الأهوية إلى
أن تشق من حزنها كما شقها السحاب طرسها •

-
- | | |
|-----|------------------|
| (١) | غطاء |
| (٢) | قافز |
| (٣) | اللدنيغ |
| (٤) | صوت تضارب السلاح |
| (٥) | الغراب |
| (٦) | رشحت |
| (٧) | رباطها |

نظرة الى هذه القطعة القصيرة تظهر لنا ولع القاضي الفاضل

بالاستعارات والتشبيه وتمقيده لها .

فمن استعاراته في هذه القطعة :

استعار للبرد خيلا ، بقوله " وركضت خيل البرد " ، ولعله اعتمد

هذه الاستعارة على ان صوت البرد يشبه صهيل الخيل .

كما استعار لليل ثوبا ، بقوله " وثوب الليل بالغمام فسيل " .

واستعار للظلام شبحا ، وللبرق سيفاً ، بقوله " وشبح الظلام بسيف

البرق قتيل " .

واستعار للأفق غراباً ، وزاب الأثق باز " على انه كان في

سواده كالغراب .

واستعار للظلمة عقارب (وكان عقارب الظلمة) على ان العقارب

سوداء في لونها كالظلام ، كما استعار لليل جناحاً بقوله " وقد ابتل جناح

الليل الغدق " .

واستعار للغمام دموعاً بقوله " ثم نضحت بدموع الغمام " يقصد المطر .

واستعار للخيام جفونا ، بقوله " فنراخت اجفانها " كما استعار لها

جلوداً بقوله " فأما الخيام التي نضجت جلودها " ، فالخيام تصنع من الوبر ، استعار

لها جلوداً ليشخصها .

ومن تشبيهاته ، " شبه عقارب الظلام بالانثاعي " استعارة

وتشبيه .

وشبه صوت الرعد بصوت السلاح المتضاربة في قوله :

وكان مواقع الرعد فعاث

شبه ارتداد الخيمة ، بالشكال التي ترابط بها ارجل الجياد

يبدو من وصفه ان الوقت عند طلوع الفجر ، فالمطر شديد وصوت الرعد قوى كصهيل الخيل اللابسة من الغمام جللا ، وثوب الليل الذي بدأ يختفي مغسول بالأمطار قد الشديده ، والظلام ينجلي بين آن وآخر بسبب البرق ، الا ان الاق مسود كالغراب ، بسبب الغيوم المتكاثفة فيه ، وهذه الغيوم التي شبهها بالغراب لسوادها تشبه الباز في شكلها وتتب داخل قوس قزح الذي أخذ يظهر في الاق ، وكان الثلج في لمعانه يظهر في الظلام كالانثاعي بين آن وآخر ، فليكن ليل الشخص الموجود في الظلام ليل اللديخ . اى ان الشخص الموجود في الظلم يجد ليله طويلا كليل المدوغ الذي يصاب بالآلم والارق فيجد الليل طويلا . وصوت الرعد يشبه صوت تضارب السلاح فلا يسكت ولا يدع فوره ينام ، وكان الصباح قد ذاب في الليل فكان مطرا ، وكان جناح الليل الذي يشبه الغراب قد ابتل فلا يستطيع الليل ان يطير ، اى ان ينجلي (وينزل) ، يشبه هنا الظلام الناشئ من الغمام الشديد بطائر ابتل جناحه بالمطر فلا يطير . والصبح متأخر في مجيئه بسبب الغيوم فكان (حمامه) اى بياض الصباح بطي في مجيئه ، فالظلام مسيطر بسبب الغمام الشديد في الجو .

ثم ينتقل ليصف الخيام التي انضجتها حرارة الشمس ، ثم ابتدت بالمطر فنضحت اجفانها ، وربما يقصد بأجفان الخيمة الفتحات المنزوعة فيها التي تكون للخيمة كالعيون ، وإذا كان لهذه الفتحات ستائر فإنها تكون للعيون كالأجفان . فعندما ينزل المطر على قبة الخيمة ينحدر ويصير يقطر عن جوانبها ، وهذه النقاط المتساقطة من جوانب قبة الخيمة كالدموع ، والخباب الذي تحمله معها عن سطح الخيمة يشبه كحل العين الذي يضيع مع البكاء ، والهوا العاصف يكاد يقطع الخيام المثبتة بالأوتاد والتي يشبهها بالخيل التي تربط سيقانها في شكل .

هذا المعنى الحرفي للقطعة ، ولكننا لو ألقينا نظرة إجمالية على الصورة لنمكن أن نتصور الظلام الشديد المخيم بسبب الخيام المتكاثفة في السماء ونسمع الرعد الشديد ونرى البرق الذي يخطف الأَبصار بقوة بين آن وآخر . كما نستطيع أن نتصور الخيام والمطر يساقط عليها والهوا الشديد يعصف بها ويكاد يقتلعها . إلا أن كاتبنا أبي إلا أن يعتقد الصورة فأكثر من زخرفتها واضاع رونق الصورة التي أراد نقلها ، وكان من الممكن أن يضعها في قالب ألبس وأسهل فتكون أجمل وأقرب إلى الذوق .

ولا داعي لإيراد صور أكثر من هذه لكثرتها ، ولكنها تعطي ولا شك فكرة عن مذهبه في البيان .

تقييم نشر القاضي الفاضل

بالغ القاضي الفاضل في استعمال الزينة اللفظية والمعنوية في أسلوبه ، ولم يترك رسالة واحدة تخلت من بين يديه دون ان يزخرها بلون من ألوان البديع أو البيان ، فجاءت أكثر رسائله غثة متكلفة لكثرة ما ورد فيها من زخارف حجبت ما بداخل الرسالة من معنى وأظهرتها وكأن هدفها الرئيسي الأسلوب والشكل لا ~~الاجتهاد~~ الجوهر ، إلا انه لم يقف مقفدا في هذا الميدان في الكتابة ، بل تأثر بروح العصر وبالطريقة الانشائية السائدة فيه والتي سادت في العصور السابقة له في مصر والمشرق الاسلامي ومصر حتى وصلت درجة من الاكتحال والنضوج على يديه ربما كان لطبيعته وثقافته أثر فيها . فهو طموح منذ صغره يريد اعتلاء منعة المجد منذ بدء عهده في الكتابة ، فراح يزخرف رسائله وينفخها بشيء من القدرة والبراعة مظهرا تفوقا على غيره من الكتاب العاملين معه . معه ليلفت الأنظار اليه . وقد كان له ما أراد وتوصل بكتابته الفنية الى القمة في العصر الصلاحي . وساعده ذلك وهو وذاكرته القوية على الاستفادة من ثقافته في نشره فاستغلها في تلميحات وإشارات وأكثر منها في رسائله حتى برز استعمالها لها في رسائله وهدت من خصائصه الجوهرية . وقد تميز القاضي الفاضل بأسلوبه على غيره من الكتاب بتسخيره الاستعارة الشعرية لخدمة الأسلوب النثري مع تطويل في الجملة وتداخل في السجع . لذلك نسب اليه بعض الكتاب والمؤرخين طريقة خاصة بالكتابة سورها بالطريقة الفاضلية حازت إعجاب بعض الأدباء

والبلاغيين المعاصرين والتالين له جعلتهم يشيدون بقوتها وبمهاره الفاضل فيها ،
فقال العماد الاصفهاني " صاحب القران ، العديم الاقران ، وواحد الزمان ، العظيم
الشان ، رب القلم والبيان ، واللسن واللسان ، والفريضة الوفادة ، والبصيرة
النقادة ، والبدية المعجزة ، والبدية العطرزة ، والفضل الذي ما سمع في الاوائل
بمن لو عاش في زمانه لتعلق بغيره ، او جرى في ضميره ، فهو كالشريعة المحمدية
التي نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع ، يخترع الافكار ، ويفسر الابتكار ، ويطلع
الانوار ، ويبدع الازهار . وهو ضابط الملك بآرائه ، وروابط السلك بالآله ، ان شاء
انشأ في يوم واحد بل في ساعه واحدة ما لو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة .
أين ^{أين} قس عند فصاحته وانتهى ^{أين} قيس في مقام حصانته ، ومن حاتم وعمر في سباحته
وحماسته . (١) وقال ^{أيضا} أبو شامة في كتابته (٢) وكانت كتابته كتاب النصر وبراعته
رائعه الدهر ويراعته بارية للبريه وعبارته نافذة في عند السحر ، وكانت بلافته للدولة
مجملة وللمملكة مكملة وللعصر الملاحى على سائر الأعمار مفضلة ، وللمنعمات مفتاحات
في الفتوحات البدية بدية ، ومخترعاته في الصنائع المخترعة صنيعا . . . وهو الذي
نسخ اساليب القدماء بما أقدمه من الاساليب وأغرى به من الابداع ، وأبدعه من الغريب
وما الفيته كمر دعا ذكره في مكاتبة ، ولا رد لفظا في مخاطبة ، بل تأتي فصوله
مبتكرة مبتدعة مبتدعة لا مفكره بالعرف والعرفان معرفة ولا نكرة . (٢) وقال عنه
السبكي " امام لواء الأديب ، وقائد لواء أهل التوسل بل وصاحب صناعة الانشاء ،

(١) الاصفهاني : ٢٥٦ ، ٢٦ -

(٢) أبو شامة : ٢٤١ ، ٢٤٢ -

أجمع أهل الأدب على أن الله تعالى لم يخلق في صناعة الترسد من بعده مثله ،
ولا من قبله بأكثر من مائتي عام وربما زادوا ، وهو من بينهم كالشاعري وأبي حنيفة
بين الفقهاء ، بل هو له أخضع لأن أصحاب الامامين قد يتنازحون في الأرجحية
فكل يدعي أرجحية امامه ، وأما هذا فلا نزاع من أهل صناعته فيه . (١)

وانتبه بعض الكتاب إلى أنه لم يكن مجدداً في طريقته طريقة الانشاء
كأبن خلكان الذي قال في حديثه عن ابن أبي الشخبا " ويقال أن القاضي الفاضل ،
رحمه الله ! كان جل لهج اعناده على حفظ كلامه وأنه كان يستحضر أكثره " (٢)
ولا شك أن لشارة ابن خلكان هذه نيمتها في دراستنا لاسلوب القاضي الفاضل واصدار
حكنا عليه . ولكننا لا نستطيع أن نؤيد ها او ننفىها وما بين ايدينا من رسائل ابن
الشخبا لا يكفي لذلك . فقد وردت له بعض الرسائل في معجم الأدباء وفي
جمهرة الاسلام (٣) تدل على شيء من التشابه في اسلوب الكاتبين ، فأبن الشخبا
لا يجيء بعيد عن السجع ، ويكثر من استعمال الجناس ومن التضمين والاشارات
وتشخيص المعاني والاستعارات والتشابه ، وهذه كلها من خصائص اسلوب الفاضل ،
غير أننا رأينا أن هذه من الخصائص التي وردت في النشر المصري قبل ابن أبي الشخبا ،

(١) السبكي ٢٥٣ ، ٤٤

(٢) ابن خلكان ، ١ ، ٢٦٨

(٣) مخطوط

ولربما لو تمكنا من العثور على عدد اكبر من رسائل سابقى ابن ابي الشخباز لتكنا من مقارنة رسائل الفاضل ^{عليه} برسائلهم بالاضافة الى رسائل ابن ابي الشخباز ، ولكن الظاهر ان ابن الشخباز بز فبره من الكتاب في هذا الفن وبع في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية حتى " بهر معاصريه بفنه وجعل المؤرخين يشيدون بفضله " . (١) وقد سبق الفاضل الى التأثير بأبن ابي الشخباز ابن قادوس ، استاذ الفاضل ، كما يظهر من بعض سجلاته التي وصلتنا ولكن هذا التأثير يدل ايضا على روح العصر والتأثر بالبيئة وباسلوب الكتابة الشائع الذى امتد الى ما بعد القاضي الفاضل . لذلك لا نستطيع ان نقول انه تأثر بابن الشخباز وحده بل بالفترا الشائع بوجه عام . وقد كان لمركزه كوزير دولة صلاح الدين وكتائب رسمي في الدولة اهمر دعاية في ازدياد شهرته وتناثر الحكام والأدباء ^{عليه} له ولاهتمام بتقليد نثره والسير على نهجه .

مقارنة اسلوب الفاضل بأساليب بعض معاصريه

عاصر القاضي الفاضل جماعة من الأدباء وكتاب الدواوين كانت لهم صلات ومراسلات سار معظمهم فيها على الخط الذى سار فيه القاضي الفاضل من استخدام البديع في الكتابة ، كان اكثرهم أسرا بملامح الدين الأصمعيانى الذى أسرى في الجناح وزاد بتعقيد له على القاضي الفاضل حتى توصل فيه الى درجة

من الغموض والابهام . وقد شرح أسلوبه في الكتابة خلال رساله ارسل بها الى القاضي
الفاضل قال فيها " وهذه الرسالة قد وفيتها حقها من التجنيس والتطبيق والتوصيع ،
والمقابلة ، والموازنة والتوشيع " . أورد بعضها رساله ملاي بالتنسيق والزخرف
والاشارات والتلميحات بشكل يدعو الى الملل كأن يقول مثلا " ما ظفر مدجج (١)
الأظلام بالسنا وبحوج الاعداء بالغنى ، ومزج الغرام من وصل حبيبه المفارق
ينجح المني ، ويخرج السقام من وصف طبيبه الحاذق ببرء الضنا ، والمعوز المعوز (٢)
بتمر الجدة بعد الاملاق ، والمنهج (٣) فلا المبهج بعز الجدة فبالاخلاق " (٤)
ويلتقي العماد الاصفهاني مع القاضي الفاضل في عدم التفرقة بين الكتابة
الديوانية والفنية التي فطن اليها الكتاب الاقدمون وفرقوا بينها كبديع الزمان الهمداني .
وقد أضاءت للفاضل جزءا من نعمة رسائله التاريخية ، وكذلك للعماد ، خاصة في كتابه
الفتح القسي في الفتح القدسي الذي بناء على البديع وطغى بأسلوبه فيه على التاريخ
نجا مصطنعا بعيدا عن الطبع والدق بالرغم مما يحويه من قيمة تاريخية ، كقوله في
في احدى صفحاته للتشيل ، " وقد سد طريق الفلق فيلقه الطارق ، وزحف
الى الحق الثابت باطله الزاهق ، وجال بالوجل وجا بالوجيب ، وثار لثار الصليب
الصليب ، وقد جمر جمعه ، ورتق نثق الصبح رفع نفعه ، وما نثر الفضا ختام قتاه ،

(١) شديد الاظلام

(٢) الذي يحتاج ولا تقضى حاجته

(٣) الثوب الخلق

(٤) الاصفهاني : ١ : ٤٤٤ - ٥٠

حتى ضم على ضوءه نهار الهدى ليل الضلال بعلامه والرجاء محقق الا ان الألماني
مخفق بالعامه ، والاسلام مشفق من اسلامه ، والدين موفق بنصرة امامه ، وهمة
الله الرافيه الرافيه من ورائه وامامه ، والله الكافل باعلامه واحكام احكامه * . (١)

وقد فطن زميل ثالث للفاضل والعماد ، وهربها الدين
ابن شداد ، الى ضرورة الفصل بين هذين الفنين من الكتابة وألف كتابا بالتاريخ
في سيرة صلاح الدين (٢) بتمتحي البساطة والسلاسة دون ان يخلو من الدقة
فجاءت كتابته أفضل من كتابة زميله وأقرب الى الواقع وطبيعة التاريخ ، وتخطت وتجاوزت
باقي كتاب العصر بين مستعبد للكتابة الديوانية ومائل الى الكتابة النثرية البسيطة ،
الا ان الكتابة الديوانية الاسلوبية كانت اكثر شيوعا على العموم .

أثره نومن جا" وا بعده من الكتاب

ظل الاسلوب الفاضلي مسيطرا على الكتابة الديوانية والفنية حتى عهد
غير بعيد عنا ، ولعل دوران رسائله بين فئة معينة من الأدباء يفسر لنا أثرها في الكتابة
فقد كانت تصدر عن ديوان الانشاء المصري الى غيره من الدواوين في البلدان الاسلامية
لتقرأها جماعة مختصة بهذا العمل وتحفظ نسخا عنها في الديوان المصري وغيره من
الدواوين ما قسح المجال لمن جا" وا بعده الفاضل من الكتاب الديوانيين

(١) الاصفهاني ، ١٤٧٠ هـ

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

بشك خاص ليطلعوا عليها ويتأثروا بها وبغيرها من الكتابات الشبيهة لها ويحاكونها ،
امثال فخر الدين ابن لقمان ^(١) ، ومحبي الدين ابن عبد الظاهر ^(٢) وفتح الدين ابن
عبد الظاهر ^(٣) وشهاب الدين محمود الحلبي ^(٤) وغيرهم ممن اشتهروا في الدواوين
المصرية .

وهكذا نردان أثر الفاضل كان بعيدا الا انه لم يقد الكتابة العربية بقدر
ما أضر بها ، لأن ناحية الشكل تغلبت على ك ما عداها حتى جاءت عصر الانحطاط
فأصبح الكتاب يهتمون بالزخرفة فقط لاثبات قدمهم بالناحية الاسلوبية . ومن هنا
كما أصبحت الثروة لازمة على هذه الأساليب في عصرنا ، فاشتركت الصحافة والأدباء في
تغيير الأسلوب ليكون مرسلا مرة أخرى كما كان لدى الجاحظ .

اما أول من فطن من القدماء الى ضرورة تغيير هذا الأسلوب ونقد به صراحة
فابن خلدون في مقدمته حين قال " والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو
اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الاقل الفادر وحيث ترسله الملكة ارسالا
من غير تكلف له ، ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقتها بقتضى الحال ، فان المقامات مختلفة ،
ولكل مقام أسلوب يخصه من اطناب وايجاز او حذف او اثبات او تصريح او اشارة او
كناية واستعارة ، واما اجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على اساليب الشعر
فمذموم وما حمل عليه أهل العصر الا استيلاء المعجمة على السنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام

- (١) ولي ديوان الانشا في عهد الملك الصالح نجم الدين ايوب وكتب لبعض تقليد السلطان
بيبرس والمنصور قلاوون . توفي عام ٦٩٣ هـ . الفلشندي ١٧٤٧ هـ .
- (٢) من الكتاب المتأخرين ، توفي عام ٦٩٢ هـ . الكتبي ١٤٥١ هـ .
- (٣) ابن محبي الدين وكتب في الانشا وساد في دولة المنصور قلاوون ، توفي بد مشق عام ٧٩١
المقرزي ١٣٠٤ هـ .
- (٤) من الكتاب المتأخرين ، أورد له الفلشندي عددا من السجلات في صبح الأعشى .

حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فمعجزوا عن الكلام المرسل لبعده أمداء في
البلاغة وانفساخ خطوبه ، ولعرا بهذا المسجع يلفقون به نقصهم من تطبيق
الكلام على المقصود ويجبرونه بذلك القدر من التزويج بالأسجاع والالقاء
البديعية " . (١)

(١) ابن خلدون ، ٥٥٠ ، ٥٥١

للقاضي الفاضل مجموعة كبيرة من الأشعار ، حدثنا عنها بقوله : " اني

من مدة ستين وما قاربها وهي المدة من تاريخها نرح بهجرة وكدي وعلو
سعر شعري ، وقد نظمت مائتين وخمسين ألف بيت من الشعر بشهادة عيانها
وحضور ديوانها مثل قولني في باذهنج شديد الحرور كأنما يتنفس نفس مصدور .
وما يناهز ألف بيت كل بيت مقصوع منها يخرج العقول اختراعه ويعني المحاسن
بديع ابتداعه ، ومثل قولني في رجل طويل الآذان كأنها في رأسه خفان ارق
عجل له منها نعدن ما يقارب ألف بيت تجاوزت بهما وأرريت وما أدخلت
منها الشاعر الى بيت ومثل قولني في رثا الوطن الذي درجت من وكره ، وخرجت
نلم أخرج عن ذكره ما يناهز عشرة آلاف بيت ، ومثل قولني :

في مدائح منصوعة وأهاجي مخصصة (١) .

وقدر سبط ابن الجوزي ما قاله القاضي الفاضل في المدح بمائة

ألف بيت . (٢)

وقد احتفظت بعض المراجع الأدبية والتاريخية بقسم من شعره ضئيل
بالنسبة لما ذكر عنه . كما جرت مؤخرا محاولة لطبع الجزء الأول من ديوان شعره ،
قام بها الدكتور احمد بدوي معتمدا على مصادر معينة ومغفلا مصادر أخرى
امثال طالع البدر للغزولي ، والغيث للصفي ، والأعلاق الخطيرة لابن شداد ،
تحتوى شعرا له كان حريا به ان يضيفه الى الديوان .

(١) الغزولي ١ - ٤٧

(٢) سبط ابن الجوزي ٨ ٤٠٤

الفاضي الفاضل

الشاعر

من مراجعة الجزم المتيسر من اشعار القاضي الفاضل ، نجد ان
الاشعار التي قالها في العهد الفاطمي متوفرة ، وكذلك الاشعار التي قالها في
عهد العزيز * ونما بين ذلك نغمة او ما يشبه النغمة لان الفترة الكبرى التي
كان يجب ان ينظم فيها ^{ههنا} الفترة صلاح الدين ، وموقفه من الفرنج ، وربما يكون قال في
تلك الفترة شعرا كثيرا الا ان ما تبقى من شعره لا يصور مجهوده في هذه الناحية
تماما ، ولا نستطيع ان نقول انه اكتفى في هذه الفترة بالنثر .

اذا عددنا القاضي الفاضل كاتبا سياسيا ومؤرخا وشاعرا ، فان الشعر
أضعف مظهره ، لماذا ؟ لانه لم يستطع ان يخرج من دائرة النثر ، أم لأنه كان
محصورا في موضوعاته الشعرية ؟ اي ان البواعث العاطفية كانت فيها ضعيفة ؟
ولذلك يمتثل في شعر القاضي الفاضل سيئات عصره لا حسناته .

اما الصورة التي يؤديها الديوان فلتفحص فانقسام شعره في موضوعين

كيسيرين :

أ - الغزل

ب - المدح

ولكن هذه الصورة لا تزال غير كاملة لان الجزء الثاني من ديوانه لم ينشر ، ثم ان
ما راجعته من شعره في المصادر المتيسرة يدل على انه كان ينظم في فنون أخرى
كالوصف والخمر .

فكن شعره في الوصف مثلاً ، قوله في شمعة

ولما أراد الليل ينظر وجهه	تقدم ان يذكي له الشمع أعينا
وما هي الا أعين وجفونها	دجاها وانسان السمود نهارنا
رياض دجى فتحن عند وفودها	ازار نار تركب الشمع أقمنا
عجبت لروض منه بالنار يزد هي	والا لزهرفه بالعين يجتني
فتكن الدجى والغور فيض دماها	اذا النار نصد والشموع لها قنا (١)

وقوله بالفرش والارائك والساند

بساط يرى التيجان تهوى للشمه	لما هو الا قبلة من مقبل
اذا نشرت من نقشه لك روضة	بدا فوقها من كفا لك جدول
وأفضل اجزاء الجسم رؤوسها	وأرجلها في وطء هسطك أفضل (٢)

ومن قوله في الخمر

لها من تصفوعلى الشرب أربع	رواحدة لولا سماحتها تكفي
سرور الى قلب وتبر الى يد	ونور الى عين وعطر الى أنف
ولما رأينا الياسمين حبابها	مددنا يمين القطف قبل فم الرشف (٣)

(١) الغزولي ٨٤٤

(٢) المصدر نفسه ٦٠٤

(٣) المصدر نفسه ١٥٧

شمل

على انا نوثر^١ ان هذا كان تجربة كلامية لا^٢ ين^٣ ما وصف به من
تدين كان يحول بينه وبين ان يكون شاعرا مجريا في هذه الناحية . ولكن حيث
كان يجب ان يكون الغزل وهو المبني على البواعث الذاتية أبرز الصورتين او
جانبى الصورة نجد ان الغزل هو النوع المتهاوت بينما المدح هو الموضوع
الحيوى المبني على تشفيق المعاني والاندفاع الموسيقى ، لماذا كان الوضع كذلك ؟

في اعتقادى ان غلبة الصورة الشعرية على غزل القاضى القاضل هي التي
جعلته نائرا في هذا الغزل ، كما ان تكرار الصور وتكرار^{الوضع} الموضوع العبودى الذى يصور
نفسه فيه ذليلا محروما هو الذى يعطى هذا الغزل صورة مبتذلة . ومن أمثلة الصور
التي ابتكرها صورة الحية والعقرب التي لا يسأم من تردادها . وهذا لا يدل على وضع
نفسى يقدر ما يدل على وضع حضارى . فالجارية والغلام كانا يصفقان شعرهما
بالطريقة ذاتها . وهذه الأوصاف وردت في ديوانه بما لا يقل عن عشرين موضعا ،
أورد منها للاستشهاد ، قوله :

وبمجنى خد حميت نعيمه بقرينتين من العذاب الأعذب
الله جار قلوب أهل العشق من وثبات حية^{حيته} ، ومشي الغرب^(١)

وقوله

لم أخف حية على الخد تسمى لا ولا عفريا عليه يدب^٢
ميت ضيقا في الرق رق غليلي مطلته بالورد والورد^(٢)

(١) البيهقي ١٢٤١

(٢) المصدر نفسه : ١٥

وقوله

أما ترى في خدها حية
فحيةً بالونب قد بشرت
وعقربا بشرتنا بالعجيب
وعقرب قد بشرت بالدبيب (١)

وقوله

أما ترى في خده عقربا
وعقرب قلن ، فلا لا من
ليس لها في ناره من فرق
وقلن ، ند ، فلم لا احصق احرق
سودا في حمرا تحكي لنا
بقية من ليلة في شفق (٢)

وقوله في الحية

ما حية في الخد يا سكني
لم ترق خدك وهي ما لدغت
سكنت ، وأقرت خلفها نرنا ؟
الا وقد الجمتها برقي
وجزاؤها من رقية نسق
قبل يؤلفها الهوى نسفا (٣)

ومن الصور التي أطلع فيها القاضي الفاضل في غزله أيضا ، نصة آدم

وهبوطه من الجنة . كقوله :

يا من سفكت دمائي في الدموع
عاهدتم وتناسيتم عهدكم
والنفس في زفرات قيدت نفسي
فالله عاهد قدما آدمنا فنسي (٤)

(١) المصدر السابق ، ١٦

(٢) المصدر نفسه : ٧٢

(٣) المصدر نفسه : ٧٢

للم (٤) المصدر نفسه ٥٣

وقوله

ما بالك يا ابليس من خلفنا	تطلبنا بالماء والزاد
امس من الجنة اخرجتنا	بحية من ذلك الوادي
واليوم قد عادت الى جنة	من وجنت ذات ايقاد
بالامس في اخراجه والدا	واليوم في اخراج اولاد
تريد ان تهبطنا ثانيا	الى متى انت بمرصاد
يا شيخ سرعنا ففي دهرنا	ما جاء معشوق بقواد (١)

عليه

ليست هذه الامثلة للحصر ، ولكنها لتبيان غرامه بهذه الصور .

اما مدحه فكان بالصفات العامة الشائعة من كرم وعلم وحلم وشجاعة

وتفوى وحسن تدبير وعقل ، الصفات التي تعود غيره من الشعراء ان ينسبوها الى مدوحيههم ، كان يستعملها في اغلب الاحيان ، بعد مقدمة غزلية دون ان يخص واحدا من مدوحيه بصفات خاصة تدل على حقيقته .

لذلك جاء شعر القاضي الفاضل في الغزل والمدح قائما على

خصائص شكلية ، منها :

١ - الطبيعة النثرية ، كقوله :

(١) المصدر السابق : ٣٢

إذا كان دهرى لا يزال محاربى فيكفيه من عينيه سيف الى قلبي
وان كان لا يكفيه شيء سوى دمي فيكفي دمع العين مني دم القلب
وان كان لابد من الحشد للعدا نحسبي للمعدال والرقيا حسبي (١)

سار في هذه الأبيات بالتقسيم والترتيب النثرى ، وهذا لا يعنونه

الشعر لانه مبني على الملح .

وكذلك قوله :

ينمادى به لجاج النفور وينافى المعوى لجاج الغرور
لا تقل : أقواله طيبات ان اقواله شهود الزور
فعلى التحمل مسحة من ظلام فعلى القول مسحة من نور (٢)

ب - التحمل في طلب المعنى ، وهذا يخرج احيانا الى الاحالة :

نظرت اليه نظرة ، فتحيّرت دقائق فكرى في بديع صفاته
فأرحى اليه القلب اني أحبه فأنثر ذاك الوهم في وجناته (٣)
راعى في هذه الأبيات المعنى ، دون ان يوجد رابطا يربطها .

وقوله :

ولقد مررت بدار من أحبته ليس التي للحب بين ضلوهي
فذكرت سبحي في بحار نداهم فوقفنا اسبح في بحار دمهي (٤)

(١) المصدر السابق : ١٨

(٢) المصدر نفسه : ٥٠

(٣) المصدر نفسه : ٢٠

(٤) المصدر نفسه : ٦١

اهتم هنا بالمعنى وبالتلاعب بالألفاظ وتكريرها .

واسمع الى شاعر بلغه نبأ موت صلاح الدين ، أحب الناس اليه
وأفضلهم ، ثم كذب النبأ ، ^{كيف يتلذذ} كيف يتلذذ ^{بالتذات} ويصف شعوره عند سماعه بتكذيبه

نعم زاد فيه الدهر موما فأصبح بعد رؤساء نعما
وما صدق التذير به ، لا هي رأيت الشمس تطلع والنجوم (١)

فانه يعنيه التلاعب بالكلمات وحذف حرف او زيادة حرف آخر ، وما هذا تعبير

عن شعور عميق .

ج - حل معان مستمدة من ثقافته الأصلية ، واكتوما أثر فيه بشكل متميز القرآن ،
ثم الحماسة بالدرجة الثانية ، ومع انه اضاف الى ثقافته بمرور الزمن ثقافة أخرى ،
الا انها لم تتضح كثيرا ، واكثر ما انطبع عنده أثر المتنبي أحيانا ، وأثر الدراسة
الفقهية ، ومن بعض تأثراته بالقرآن قوله :

إذا زلزلت بالعاديات منازل فلا هجنكم صباحا ، ولا رعنكم ضبحا (٢)

استندها من قوله تعالى في سورة العاديات " والعاديات ضبحا ، فالعاديات قدحا ،
فالعغيرات صباحا " . (٣)

(١) المصدر السابق : ٢٠٦

(٢) المصدر نفسه : ١٧١

(٣) القرآن الكريم : ٨٠-٨١

وقوله

وأقسم لولا أنه طوي عزة
ومن موعد الأطلود في الحشر أن تسرى
ذهلت لأشوار القيامة إذ بدت
لأنني رأيت الجود منفجر البحر (١)

استعدها من قوله تعالى في سورة الانقطار " إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب
انفثرت ، وإذا البحار فجرت " . (٢)

وقوله

أما رأيت فيمهي الصبح يا شفقاً
ألا أتيت عليه بالدم الكذب (٣)

استعدها من قوله تعالى في سورة يوسف " وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل
سولت لكم أنفسكم أمراً " . (٤)

ويظهر تأثره بالفقه في قوله :

عذول الهوى ييني بغير أساس
ويُنْفِي بلا نصٍّ وغير قياس (٥)

فهو هنا يستعمل اصطلاحات الفقهاء من نص وقياس وافتاء ، ويظهر أثر

الاعتقادي في قوله :

كما يتزيا بالهوى غير أهله
كذا ما تزيا بالهوى غير أهله (٦)

(١) البيهقي ٢-٣

(٢) القرآن الكريم ٧٨٧

(٣) المصدر السابق ١٣٦

(٤) القرآن الكريم ٨٠٩

(٥) البيهقي ١١٠

(٦) المصدر نفسه ٨٠

أما أبيات المتنبي فهي :

وقد يتزيا بالهوى غير أهله ويستصحب الانسان من لا يلائمه (١)

كما حل قصيدتين متتاليتين من الحماسة في قصيدة واحدة مما يدل على انشغال ذهنه بما درسه في حياته ، والقصيدتان اللتان حللتهما متقاربتان في موضوعهما في كتاب الحماسة ، أما القصيدة الأولى فهي قصيدة تريض بن أنيف التي مطلعها :

لو كنت من مازن لم تستبح أبلي بنو اللقيطة من زهلي ^{بن} شيبانا
ومنها لكن نومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشرفني شيء وإن هانا (٢)
وأما الثانية فهي قصيدة الفند الزماني :

عفحناعن بني زهلي وقتلنا القوم اخوان
وفيها يقول ، وهو من المواضع التي استعارها الفاضل :
فلما صرح الشر وأمسى وهو عريان
مشينا مشيه الليث فدا والليث فضبان
ومنها وطعن كهم الزرق فدا والزرق ملاّن (٣) (٤)

(١) المتنبي - ٢٥٦

(٢) ابوتنام ١٤٤١

(٣) المصدر نفسه ، ١٥

وقد مزج القاضي الفاضل بين القصيدتين في قوله :

لا كنت يا ذهل هومي ، ولا ابوك دهرى ، فهو شيبان
تدروا الحفيظات لهم لوعة لانوا فلا قرؤ اذا هانوا (١)
• اخذها من قصيدة فريط •

وأخذ عن قصيدة الفند ، في قوله :

عمودهم كسوة اسياهم لا حطت ، والشر عريان
كم وق خمر فيهم ناطق سكران ، بل راجية سكران
فلا تراجع ، ولا لفظه ولا تزد ، فالزق ملآن (٢)

ويلحق بهذا النوع الاقتباس والاشارات التاريخية .

فمن اقتباساته قوله :

ويا من سقى بالخمير من طيب ذكره " الا فاسقني خمرا ، وقل لي ، هي الخمر " (٣)

اقتبس الشطر الثاني من هذا البيت ، شطر بيت لبي نواس ، شطره الثاني :

" ولا تسقني سرا اذا امكن الجهر " (٤)

(١) البيهقي ١١٤٦

(٢) المصدر نفسه ١١٤٦

(٣) المطر نفسه ٢١٨

(٤) المصدر نفسه ٢١٨ ، هامش ١

وقوله :

أيا صالح الأمل ، كم قلتَ مثنيًا * إذا نحنُ أنبينا عليكِ بصالحٍ * (١)

نصف البيت لأبي نواس ، والشرط الثاني هو " فانت كما نثني وفوق الذي نثني " . (٢)

ومن اشاراته التاريخيه تلميحہ الى قصة عثمان بن عفان عندما حاصر

في بيته وقتل ، في قوله :

أصبح في دار ضلوبي الآن	قلبي كما أصبح عثمان
محصورة أمواله ماله	مع اشتداد الحصر إمكان
قد أحرق الهمة بأرجائه	جيشًا فضربًا ، وطعمًا
فيا زمني إن جرت قطرة	من دم قلبي ، فلها شأن
في دم عثمان الذي قد جرى	جرت من الأحداث ألوان (٣)

ومن اشاراته الى اسماء اشخاص قوله :

ما اكثر الاطراب بالبعد الذي	يرزى بهم كثير من عزة
طرب الكرم الى العلا غير الذي	يلتذ من طرب الوليد بعلوة (٤)

(١) المصدر السابق : ١٨١

(٢)

(٣) البيهقي - ١١٣ - ١١٤

(٤) المصدر نفسه ، ١٦٧

أشار في أبياته هذه إلى شاعرين ، كثير ، أحد شعراء الأمويين ،
اشتهر بحبه لعزة ، والبحترى ، أحد الشعراء العباسيين ، أحب نشأة حلبية
تدعى علوة .

د - التلاعب اللفظي والتورية :

فمن توريته قوله :

يا قلب كم خلفت ثم بشينة وأعيذ صبرك أن يكون جميلا (١)
ورى بين الجمال وجميل ، أحد الشعراء ، اشتهر بحبه لبشينة .
وقوله :

فيا ليل أن تولنيها يدا تجدني لها ذاكرا شاكرا
وإن قلت : نعرفه كافرنا أقل ، إلا ، ولكن نعم ، فاجرا (٢)

استخدم كلمة كافر على سبيل التورية من الكفر ضد الإيمان . والكفر بمعنى السر ،
وفي كلمة كافر تورية ، فالمعنى القريب أنها مأخوذة من الفجور وهو الانبعاث في
المعاصي ، والثاني أنها مأخوذة من فجر الفجر بمعنى أصره . (٣)

هـ - استعماله الدارج من اللفظ لدرجة العمومية . كقوله :

(١) المصدر نفسه ، ٩١
(٢) المصدر نفسه ، ٢١٣
(٣) المصدر نفسه ، ٢١٣ هامش (٢)

نحياتي لا أرحس الله منها وعلى الدهر بعد موتي السلام

كان أقرب إلى العامة في قوله " لا أرحس الله منها " .

وقوله :

وملك إلى نفسي ، فلمها وأغضب فعلى ما بين الصديقين مدخل (١)

استعمل التعبير الداج " وملك إلى نفسي " .

وقوله وهو أقرب إلى العامة :

كأنه الحائط ، لم يستمع شكوى ، وللحائط آذان (٢)

و - اعتماد الصنعة القائمة على العدد كقصيدة مدح بها العزيز عثمان عد فيها صفات مختلفة بأربع ، ثلاثاً وأربعين مرة ، بدأ القسم العددي منها بقوله :

ففرّء وطيبّ وأحداق ، وأجباد	فيهن من شبه الغزلان أربعة
طبّ ، وفُرش ، وسقار ، وهواد	وقد بكت لفضي العشاق أربعة
ينمي ، ويهي ، ويستشري ، ويزداد	هي بهم زائد زادت أربعة
عدّاء ، ودمع ، واطراق ، واسهاد	وكيف يبغي على العينين أربعة
عهد ، وودّ ، وأقوال ، وميعاد	هيها يصدق منك الظن أربعة

(١) المصدر نفسه ، ٨٦

(٢) المصدر نفسه ، ١١٤

ويقول فيها: وللعزيز من الملوك أربعة تلبه ونطق ، وأخلاق ، واحقاد
تجمعت في مدحي فيه أربعة سبك ، ونظم ، وإنشائي ، وإنشاد (١)
وهكذا ، إلى آخر القصيدة .

ز - اعتناؤه بالجناس والطباق ومراعاة النظير .
فمن جناساته قوله :

من أين أنت ، ومن يدريك أين أنا الجد خلقي ، ومن أخلاقك العيب
ما جئت مبعوثاً ، بل جئت باعثة همي ، ولا خاطر في الهم متبعث (٢)
حيث حاول أن يجانس جناس اشتقاق بين مبعوثه وباعثه ومتبعث وكلمة العيب .
وقوله :

لم يطعم الليل مني أن أرق له ينسى جنایاته الناسي على الناس
حيث جانس بين كلمتي ناسي ، اسم الفاعل ، والناس جناساً تاماً .
وقوله :

فما لعين عن رياض رضا ولا لبح عن فؤاد براح
لا مرحا صرت ولا مشتقى أفقدني فقد الملاح المراح

حيث جانس بين كلمة برح بمعنى الشدة ، وبراح بمعنى مفادته المكان . كما جانس
في البيت التالي جناساً ناقصاً بين الملاح والمراح .

(١) المصدر نفسه ، ١٩٠

(٢) المصدر نفسه ، ٢١

ومن قوله في مراعاة النظير :

في خده فح لعطفة صدغه والخال حبه وقلبي الطائر (١)

راعي في ذكره للفح ان يذكر الحبة والطائر

ومن مطابقاته قوله :

يلا م لما لا يستطيع ميعذر	ويسهب فيه القول او فيقصر
وأفعالكم تنهاء لو كان ينتهي	وما غابت الا رأ لو كان يحضر
لساني بأمرى ، وهو مني ومنكم	عن البث ينهي او فبالكلم يوتر
فأما جفوني فهي بين يد يكس	ضموري بها بيد ووسري يظهر (٢)

طابق بين يسهب ويقصر وقاب ويحضر ، وينهى ويؤمر ، كما استعمل

مجموعة من الكلمات المتطابقة في الأبيات التالية بقوله :

يا طرف ، مالك ، ساهد في راقد	يا قلبه مالك راقب في زاهد
من يشتري عمرى الرخيص جميعه	من وصلك الغالي بيوم واحد (٣)

هي ، ساهد وراقد ، وراقب وزاهد ، ورخيص وقال .

(١) المصدر نفسه ، ٤٦

(٢) المصدر نفسه ، ٣٦

(٣) المصدر نفسه ، ٣٣

ح - بالرفق من ميله الى التقليد ، نجد ان مرجة التوشيح قد أعدت .
ولا بد ان يكون قد تأثر بتلميذه ابن سناء الملك ، أحد الذين أولعوا في الموشح
من المشرقين ، وألف فيه " دار غل الطراز " الذي حاول فيه ان يحدد قواعد
الموشح ويبين خصائصه وطرق نظمه وأوزانه (١) ، ولعل كتابه هذا أول ما ألف
في هذا الباب فقد ذكر فيه ابن سناء الملك " ولما كانت الموشحات بهذه
المثابة ، ولها في سوق الآداب هذه القيمة ، ولم أر احدا صنف في اصولها ما يكون
للمتعلم مثالا يحتذى وسبيلا يقتفى ، جمعت في هذه الأوراق ما لا بد لمن
يعانيها ويعنى بها من معرفة ولا غنى به عن تفصيله وجملته ، ليكون المنتهي تذكرة
وللمبتدى تبصرة " . (٢) وقد جعل قسطا من هذا الكتاب لمجموعة من الموشحات
نظمها بنفسه ، لا بد وان يكون القاضي الفاضل قد اطلع عليها لما كان بينهما
من صداقة وتبادل آراء في النقد .

من موشحاته :

دع اللوم يا عاذلي	بالعاذل
ولا تكثرني السلام	فما انت بالعاذل
على الصب مثل الكلام	وأقصر بهذا الكلام
تلوم الى القابل	ولو قمت في كل عام
	فما انا بالقابل (٣)

(١) ابن سناء الملك ، ١٣

(٢) المصدر نفسه ، ٢٤

(٣) المصدر نفسه ، ٧٦

وهي غير تامة ، لذلك لا نستطيع ان نحكم عليها .

وموشحة أخرى يقول فيها :

مَنْ لِي بِهِ بَدْرٌ كَلَّةٌ	قَدْ حَازَ قَلْبِي كُلَّهُ
فَهَلْ تُرَى يَتَعَزَّزُ	وَالْعِزُّ فِي الْحُبِّ ذِلَّةٌ

...

رَضِيتُ بِهِ ^{وفيه} مُصَابِي	فَمَا عَلَى النَّاسِ مِنِّي
وَرَا حَتَّى فِي عَذَابِي	فَلَوْ ضَيَّ ^{مضى} ذَاكَ عَنِّي
لَا شَتَّى قَلْبِي لِمَا بِي	فَهَلْ عَلِمْتُ بِأَنْسِي
أَسَيْتُ أَحْمَلَ مُقَلَّةٌ	مِنَ النَّوَامِ مُقِلَّةٌ
لَوْ زَارَهَا الطَّيْفُ أَعَزَّ	نَوْمٌ يَكُونُ مَحَلَّةٌ

.....

مَزَجْتُ مِنْهَا كُتُوبًا	تَجَلَّوْا الدَّجَى بِشِعَاعِ
إِذَا تَجَلَّتْ شَمُوسًا	وَقَامَ لِلْمَوَدَّاعِ
فَالرُّوضُ يُجَلَّى عَرُوسًا	قَدْ سَوَّيْتُ ^{سَوَّيْتُ} بِشِجَاعِ
أَشْجَارَهَا مِثْلَ كَلَّةٍ	فَالرُّوضُ مَطْرَحُ يَذَلَّةِ
لَهُ مِنَ النُّهْرِ قُرُورٌ	فَانْظُرْ إِلَى صَنْعَةِ اللَّهِ (١)

(١) المصدر نفسه ، ٢٨٣ - ٢٨٤

• كون بعض مقطوعاته من اربعة ابيات وبعضها الاخر من خمسة •

• الا انه لم يستعمل الخرجة العامة في هذا الموشح •

تصح للقاضي بعض المحاولات في التجديد بالمعاني • وفي السياق

العام ، شعره ذى نسق جميل ليس فيه كثير من الحديث عن ذاته الا في النادر وله قطعة واحدة يشكو فيها من خدمة السلاطين بقولسه :

ما خادمُ السلطان الا عرضةٌ	من نُيِّضَ وابِلُه ولنظَرِ وابِلِه
عَجَلْتُ عَقْرِيَّ كُلَّ جَارِحَةٍ بِهِ	من قَبْلِ يَوْمِ مَوْفَقِ لِنِكَالِه
لَجَّهْتُ فِجْنَانَهُ بِجُمُودِهِ ، ^{وَرَرَاؤُهُ} وَرَرَاؤُهُ	بِخُمُودِهِ وَلِحَاطَةِ بَيْكَلَالِه
وَالْهَمُّ يَطْرُقُهُ لَدَى غُدُواتِهِ	وَالْهَمُّ يُصَلِّيهِ لَدَى آصَالِه
يُعْزَى إِلَى التَرْوِيقِ فِي إِكْثَارِه	وَيُؤَنُّ بِالتَكْذِيبِ فِي إِقْلَالِه
من لِي بِرِزْقٍ ^{لَيْسَ} مِنْ أَرْزَاقِه	من لِي بِشُغْلٍ لَيْسَ مِنْ أَشْغَالِه
وَلَقَدْ شَقِيتُ بِخُونِهِ وَحَرَامِه	نَمَتِ أَلْدُ بِأَمْنِهِ وَحَلَالِه
مُتَرْجِيًا لِلْعَيْشِ فِي إِعْزَازِه	مُتَخَوِّفًا لِلْمَوْتِ فِي إِذْلالِه (١)

وصل بتذمره من خدمة السلطان ان وصف خادم السلطان بالآلة

لا صابته بجمود العقل ، وعدم التفكير الحر لانه يفكر بعقل السلطان ، واصابة بهجته

بالخمود لكثرة خوفه من الوقوع في الاخطاء ، ونظره بالكلال ، لكثرة ما يلحظ وجه السلطان ،

(١) المصدر نفسه ، ٢٢٨

لمعرفة ما يرضيه ويغضبه ، ومثل هذا القول مستغرب صدوره عن القاضي الفاضل
لاق في ثنايا قصيده مدحية .

وأخرى يشكو فيها من معاملة الاصدقاء ويقول :

وأما سوء حظي من صديقي	فذاك من الرسوم المستقرة
وخيل كان مودع كل سر	فكنت أصونه وأصون سره
حفظت عهد ، وأضاع عهدي	ولم يك لي بطرق الغدر خبره
وكم آمنت به خدعي ومكره	ولم آمن خديعته ومكره
بذلت له على العلات خيري	ولكن ما كانني لك شره (١)

جاء القاضي الفاضل في شعره روح عصره للى حد ما في اهتمامه
بالصنعة واعتماد المحسنات اللفظية والمعنوية ، اثبت انه في الشرائع منه
في الشعر ، ومع هذا فقد اعجب بعض الاذبا بشعره واستعانوا ببعض الصور
التي قدمها للدلالة على بلاغته ومقدرته الشعرية .

يذكر العباسي في حديثه عن الخالص قوله : ومن المخلص البديعة
قول القاضي الفاضل ، من قصيدته يدح بها الخليفة الفاطمي في ذلك العصر مطلقا :

(١) المصدر نفسه ، ٢٣٠

تري لحنيني اوحنين الحمايم جرت فحكيت دمعى دموع الغمام

وبعد ان يورد المقدمة يقول وما احلى قوله بعده ، وينقل ما قاله الفاضل حتى يصل الى المخلص الذى يقول فيه :

فان نوادى بعدكم قد قطمته عن النسم الا مدحه لابن فاطم (١)

وأورد له ابياتا اخرى اثنى على مطالعة نبيها بقوله " ولتذكر هنا

من مطالع المتأخرين ما يزرى بمطالع البدور ، ويظهر نظمه محاسن الدر المنثور " .
ثم يقول ، ومن ذلك قول القاضي الفاضل :

زار الصباح فكيف حالك يا دجى قم فاستقم بغريه ارفالنجا
وقوله ايضا يخاطب العاذلي :

أخرج حديثك من سمعي فما دخلا لا ترم بالقول سهما ربما قتلا
يقول : وما الطف ما قال بعده :

ولا يخف على قلبي حديثك لي لا والذي خلق الانسان والجبال
يقول ايضا ، وقوله :

سمعتك والقلب لم يسمع فكم ذا تقول وكم لا يعي
يقول وما عنده اننى بغير فؤاد ولا أضلع
اما مع هذا الفتى قلبه فقلت نعم يا فتى ما معي (٢)

(١) العباس ج ٤ ص ٢٥٨ - ٢٥٩

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٥

ويورد له في مناسبة أخرى اشعاراً مستشهداً على سبق القاضي
الفاضل بطرق موضوعها فيقول * ولنذكر من أخذ المتأخرين بعضهم عن بعض ما
يحلوني الأذواق وتتحلن به الأرواق .

من ذلك قول القاضي الفاضل في ملحق معذر

وكنّت وكما والزمان مساعد	فصرتَ وصرنا وهو غيرُ مساعد
وزاحمني في ورد ريقك شارب	ونفسي تأبى شركها في الموارد (١)

ويذكر ابن تغريردى أن علماء البديع استشهدوا بكثير من
شعره ، وقال عنه * وفضل القاضي الفاضل وبلاغته وفصاحته أشهر من أن يذكر * (٢)

فإننا بالرغم من بعض هذه الآراء القليلة ، لا نستطيع أن نضعه
في مرتبة المجيدين من الشعراء .

(١) المصدر السابق ص ١٠٢

(٢) ابن تغريردى ج ٦ ص ١٥٧

خاتمة

هذه هي الصورة التي تمكنت من استنتاجها وتقديمها عن القاضي

الفاضل . ولا يمكنني ان أقول انها الصورة النهائية له ، لأن ما بين يدي من روايات قليلة لا تكفي لاصدار حكم او اعطاء صورة لشخص عاش سبعين عاما واجه خلالها ظروفنا مختلفة كيف نفسه وشخصيته بطرق مختلفة بموجبها . لذلك اکتفي بقولي اني بذلت جهدي لابرار الصورة الاقرب الى حقيقته ، آملة الا اكون اجحفتته حقه .

قسمت بحثي الى اربعة موضوعات ، بدأتها بعقدية عن العصر وأثره

في حياة القاضي الفاضل وتكوين شخصيته وتوجيهها في الاتجاه الذي سارت عليه ثم انتقلت للتحدث عن سيرته فبدأت بالتعريف به ، وبأسرته التي لم يشر اليها في أدبه معتمدة على الروايات القليلة التي أوردتها بعض المصادر عنه . ثم بحثت في سيرته بناء على ثلاث مراحل ، أولها في العهد الفاطمي . حيث كان يكافح للحصول على مقولة مرموقة في الدولة ، معتمدا على فنه التري والشعري بالأغلب ، وثانيها في عهد صلاح الدين عندما وصل ذروة مجده معتمدا على تدبيره وإدارته وفنه ، فلعب دورا كبيرا في تاريخ البلاد من حيث دعاه الدائم للوحدة وجهاد الفرنج ، ووقوفه الى جانب صلاح الدين وتشجيعه ونصحه الدائم لهم ، وتيقظه في مراقبة الأحداث الداخلية من انقلابات واضطرابات

والقضاء على بعضها .

أظهرني هذه الفترة مقدرة سياسية ناقض نفسه فيها فيما بعد دون
أن يشعر ، فوافق صلاح الدين على تقسيم البلاد التي طالما دعا إلى توحيدها ،
بين أبنائه . وشاهد جزءاً من نتيجة هذا الخطأ المشترك بينه وبين صلاح الدين بعد
وفاته الأخير وظهور الخلاف بين أبنائه وتقسيم مملكته وانتقال الملك إلى العادل أبي
بكر ، أخي صلاح الدين ، قبل وفاته بيوم ما سبب له صدمة عنيفة لم يتمكن من تحملها .

وحاولت أن أرسم شخصيته كما لمحتها من بعض كتاباته ، وما ألقته
المصادر من ضوء عليها أثناء الحديث عنه ، وأن اتبع أثرها الذي ظهرني مظاهر
عديدة من بيئته . ثم خصصت فصلين لنشره وشعره ، يدأته بنشره لأنه القسم الأهم
فقدت صورة موجزة لحال النشرني المشرق الإسلامي وصر منذ ظهور العناصر الفنية
حتى عصره ، ومدى تأثيره به في نشره الذي وصلنا من رسائل ديوانية وأخوانية ،
حيث اعتمد البديع في كتابته واستعمل عناصر خاصة جعلت المؤرخين يطلقون
عليها اسم الطريقة الفاضلية . كما قارنت كتابته مع كتابة بعض معاصريه لنتمكن من
إصدار حكم عليه من حيث الأسلوب . وأنهيت البحث في الحديث عن شعره حيث
وجه جل اهتمامي بالمظهر الذي أضاع في سبيله قيمة شعره وعمله الشعري إلى
حد ما .

لائحة المصادر والمراجع

(١) المصادر (١)

١- المخطوطة

أ - الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم ، نسخ محيي الدين عبد الله

بن عبد الظاهر (ت ٦٦٦ هـ ، ١٢٦٣ م)

مكتبة دار الكتب المصرية

مخطوط مصور رقم ٢٢٤ أدب

ب - كتاب فيه من كلام الفاضل عبد الرحيم البيساني ، تم نسخه عام ٦٨٣ هـ

نسخته محفوظة بمكتبة الجامعة الأميركية ببيروت .

ج - الفاضل من كلام الفاضل

جمع جمال الدين ابن نباته (ت ٧٦٨ هـ ، ١٣٦٦ م)

دار الكتب المصرية

مخطوط مصور رقم ٢٨٨٢ أدب . مصور عن نسخة في المتحف البريطاني

د - من ترسل القاضي الفاضل

نسخ موفق الدين ابن الدياجي

مخطوط مصور ، مكتبة بشير آغا أيوب

رقم المخطوط ١٢٦

(١) نقتصر في لائحة المصادر هذه على كتب القاضي الفاضل ومجموعات رسائله . أما المؤلفات التي تمدنا بمعلومات عنه فنقد أوردناها في لائحة المراجع .

٢- الطبعة

- البيهقي ، ديوان القاضي الفاضل لعبد الرحيم بن علي البيهقي

(ت ٥٩٦ هـ ١١٩٩ م)

تحقيق الدكتور احمد احمد بدوي

دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦١ م ، (١٣٨١ هـ)

٣- مجموعات رسائل القاضي الفاضل في المؤلفات التالية

١- ابو شامة ، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين لعبد الرحمن بن

اسماعيل أبي شامة .

لشهاب الدين (ت ٦٦٥ هـ ١٢٦٢ م)

مطبعة وادي النيل بالقاهرة ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ هـ (١٨٧٠-١٨٧١ م)

ب- الفلقشندي ، صبح الأغنى في صناعة الانشا لأبي العباس احمد

بن علي الفلقشندي

(ت ٨٢١ هـ ١٤١٨ م)

المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٣٣١ هـ (١٩١٢ م)

ج- المقرئ ، الخطط المقرئية المسماة بالمواظ والاعتبار يذكر

الخطط والآثار المقرئية .

لتقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ ١٤٤٠ م)

المليجي بالقاهرة ١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ (١٩٠٦ - ١٩٠٨ م)

دار الطباعة المصرية ، ١٣٢٠ هـ (١٨٥٣ م)

المراجع

المراجع القديمة

- ١- ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لأحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة (ت ٦١٨ هـ - ١٢٢٠ م)
المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٢٩٩ - ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ - ١٨٨٣ م)
- ٢- ابن الأثير ، الروشي المرفوم في حل المظنوم لضياء الدين أبي الفتح ابن الأثير .
(ت ٦٣٧ هـ ١٢٣٩ م)
مطبعة ثمرات الفنون ، ١٢٩٨ هـ . (١٨٨٠ م)
- ٣- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ لعزالدين بن الأثير
(ت ٦٣٠ هـ ١٢٣٢ م)
القاهرة ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م)
- ٤- ابن أياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور لأبي البركات بن أحمد بن أياس
(ت ٦٣٠ هـ - ١٥٢٣ م)
مطبعة التقدم ، القاهرة ١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م

٥ - ابن تغريبدى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

لجمال الدين أبى المحاسن بن تغريبدى

(ت ٨٧٤ هـ ١٤٦٩ م)

مطبعة دار الكتب ، ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م)

٦ - ابن جبير ، رحلة ابن جبير لمحمد بن أحمد بن جبير

(ت ٦١٤ هـ ١٢١٧ م)

بريل ، لندن ١٩٠٧ م (١٣٢٥ هـ)

٧ - ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون لكتاب العبر وديوان المبتدأ

والخير في أيام العرب والعجم والبحر لعبد الرحمن بن محمد ابن خلدون

المطبعة الأزهرية ١٣٤٨ هـ (١٩٣٠ م)

٨ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنبأ أبناء الزمان لشمس الدين ابن خلكان

(ت ٦٨١ هـ ١٢٨١ م)

بولاق ١٩١٩ هـ (١٨٨١ م)

٩ - ابن سناء الملك ، دار الطراز في عمل الموشحات لأبى القاسم

هبة الله ابن سناء الملك .

(ت ٦٠٨ هـ ١٢١١ م)

دمشق ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م)

١٠- ابن شداد ، الإغلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة

لعز الدين محمد ابن شداد

(ت ٦٨٤ هـ ، ١٢٨٥ م)

مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق ، ١٩٥٦ م (١٣٧٥ هـ)

١١- ابن الصيرفي ، قانون ديوان الرسائل ، لعلي بن منجب الصيرفي

(ت ٥٤٢ هـ ، ١١٤٧ م)

القاهرة ، مطبعة الواظ ، ١٩٥٥ م (١٣٤٣ هـ)

١٢- ابن كثير ، الهداية والنهاية في التاريخ ، لعبد الدين ابي الفدا ابن كثير

(ت ٧٧٤ هـ ، ١٣٧٢ م)

مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩ م)

١٣- ابن ميسر ، اخبار مصر ، لمحمد بن علي بن يوسف بن ميسر

(ت ٥٥٣ هـ ، ١١٥٨ م)

مطبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩١٩ م (١٣٣٨ هـ)

١٤- ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ، لجمال الدين محمد بن سالم

ابن واصل .

(ت ٦٩٧ هـ ، ١٢٩٨ م)

مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٣ - ١٩٥٧ م (١٣٧٢ ، ١٣٧٦ هـ)

١٥- أبو شامة ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، لعبد الرحمن بن

اسماعيل شهاب الدين

(ت ٦٦٥ هـ ، ١٢٦٧ م)

• مطبعة وادي النيل بالقاهرة ١٢٨٧ ، ١١٨٨ هـ (١٨٧٠-١٨٧١ م)

١٦- أبو الفدا ، المختصر في تاريخ البشر ، لعماد الدين اسماعيل بن علي

(ت ٧٣٢ هـ ، ١٣٣١ م)

المطبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م)

١٧- الأزدي ، بدائع البدائع (هامش شرح شواهد التلخيص المسمى

معاهد التنصيص) لعلي بن ظافر الأزدي .

(ت ٦٢٣ هـ ، ١٢٢٩ م)

المطبعة النبهية ، القاهرة ١٣١٦ هـ ، ١٨٩٨ م

١٨- الأصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر)

لعماد الدين الأصفهاني .

(ت ٥٩٧ هـ ، ١٢٠١ م)

نشر الدكتور أحمد أمين بشوقي ضيف ، احسان عباس

١٩- الأصفهاني ، الفيح النفسي في الفتح القدسي ، لعماد الدين الأصفهاني

(ت ٥٩٧ هـ ، ١٢٠١ م)

المطبعة الخيرية ، القاهرة ، ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م)

- ٢٠- الثعالبي ، يتيمة الدهر في شعر أهل العصر ، لأبي منصور
عبد الملك بن محمد الثعالبي .
(ت ٤٢٩ هـ ، ١٠٣٧ م)
المطبعة الحنفية ، دمشق ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م)
- ٢١- الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي
(ت ١٠٨٩ هـ ، ١٦٦١ م)
مكتبة القدسي ، ١٣٥٠ - ١٣٥١ هـ (١٩٣١ - ١٩٣٢ م)
- ٢٢- سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، لأبي المظفر يوسف بن تارغما
(ت ٦٥٤ هـ ، ١٢٥٦ م)
حيدرآباد الدكن ، دائرة المعارف العثمانية
- ٢٣- السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي
(ت ٧٧١ هـ ، ١٣٦٩ م)
المطبعة الحسينية ، القاهرة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م)
- ٢٤- السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، لجلال الدين السيوطي
(ت ٩١١ هـ ، ١٥٠٥ م)
القاهرة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م)

٢٥- الصندى ، الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، لصالح الدين
بن أيك الصندى .

المطبعة الأزهرية المصرية ، ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م)

٢٦- الصندى ، الواني بالونيات ، لصالح الدين خليل بن أيك الصندى
(ت ٧٦٤ هـ ، ١٣٦٢ م)

تحقيق هـ رينير (واس) ديدريغ

مطابع مختلفة ، ١١٢١ - ١١٥٣ م (١٣٥٠ - ١٣٧٣ هـ)

٢٧- طاش كبرى زاده ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، لأحمد بن مصطفى
(ت ٩٦٢ هـ ، ١٥٥٤ م)

حيدر آباد ١٣٢٨ - ١٣٥٦ هـ (١٩١٠ - ١٩٣٧ م)

٢٨- المعباسي ، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، لعبد الرحيم
بن عبد الرحمن العباسي .
(ت ٩٦٣ هـ ، ١٥٥٥ م)

المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٤٧ م (١٣٦٧ هـ)

٢٩- الغزولي ، مطالع البدور في منازل السرور ، لعلاء الدين علي ابن
ابن عبد الله البهائي الغزولي . (ت ؟)

مطبعة ادارة الوطن ، ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ م)

٣٠- القرآن الكريم

مطبعة عبد الله الملاح ، دمشق ١٣٧٩ هـ (١٩٦٠ م)

٣١- القفطي ، انباء الرواة على انباء النحاة ، لجمال الدين أبي

الحسن علي بن يوسف القفطي .

(ت ٦٤٦ هـ ، ١٢٤٨ م)

مطبعة دار الكتب ١٩٥٠ م (١٣٧٠ هـ)

٣٢- القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، لأبي العباس أحمد

بن علي القلقشندي .

(ت ٨٢١ هـ ، ١٤١٨ م)

المطبعة الاثرية ، القاهرة ، ١٣٣١ هـ (١٩١٢ م)

٣٣- الكتبي ، فوات الوفيات ، لمحمد بن شاكراحمد الكتبي .

(ت ٧٦٤ هـ ، ١٣٦٢ م)

مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥١ م (١٣٧١ هـ)

٣٤- المقرئ ، الخطط المقرئية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط

والاقتدار ، لتفي الدين أحمد بن علي المقرئ .

المليحي ، القاهرة ١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ (١٩٠٦ - ١٩٠٨ م)

دار الطباعة المصرية ، ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣ م)

٣٥- المقریزی ، السلوک لمعرفة الملوك ، لتقي الدين احمد بن علي المقریزی .

(ت ٨٤٥ هـ ، ١٤٤٠ م)

الإسلام القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٤ - ١٩٤٢ م

(١٣٥٣ ، ١٣٦١ هـ)

٣٦- النعمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، لابن الفاضل عبد القادر

بن محمد النعمي .

(ت ٩٢٠ هـ ، ١٥١٢ م)

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٨ - ١٩٥١ م (١٣٦٨ - ١٣٧١ هـ)

٣٧- النويري ، نهاية الأرب في فنون العرب ، لابن العباس احمد بن

عبد الوهاب النويري .

(٧٧١ هـ ، ١٣٦٩ م)

دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٥ (١٣٤٢ - ١٣٧٥ هـ)

٣٨- ياقوت ، معجم الأديب ، لشهاب الدين ياقوت الرومي الحموي .

(ت ٦٢٦ هـ ، ١٢٢٩ م)

مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٣٦ - ١٩٣٨ م

(١٣٥٥ ، ١٣٥٧ هـ)

٢٩- اليمني ، النكت العصرية في أخبار الأُمم المصرية ، لأبي محمد

عمارة بن علي اليمني ،

(ت ٥٦٩ هـ - ١١٧٢ م)

باريس ، لورد ١٨٩٧ م (١٣١٥ هـ)

المراجع الحديثة

١- بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، لأحمد بدوي

مكتبة النهضة ، مصر ، سنة ؟

٢- حسين ، أدب مصر الفاطمية ، لمحمد كامل حسين .

القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٠

٣- الشبال ، مجموعة الوثائق الفاطمية ، لجمال الدين الشبال

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٨ م ١٣٧٧ هـ

٤- ضيف ، الفن ومذاهبه في النشر العربي ، لشوقي ضيف

مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٦ م

٥- مبارك ، النشر الفني ، لزكي مبارك

مطبعة دار الكتب ، ١٩٣٤ م

٦- القدسي ، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، لأفيس القدسي

مفشرات الدائرة العربية في جامعة بيروت الأمريكية ، سنة